

قراءات فكرية وثقافية عامة (1)

محاضرات في

مدارس تفسير التاريخ

(فلســـــفة التاريـــخ)

نشـــأة الحضارات وتطورها وسقوطها

الدكتور
عارف أحمد إسماعيل المخلافي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء

محاضرات في

مدارس تفسير التاريخ

(فلسفة التاريخ)

نشأة الحضارات وتطورها وسقوطها

الدكتور

عارف أحمد إسماعيل المخلافي

قسم التاريخ-كلية الآداب-جامعة صنعاء

الصف الإلكتروني والإخراج للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب (٣٩) لسنة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧م

دار الكتاب الجامعي – الجمهورية اليمنية – صنعاء



دار الكتاب الجامعي
تلفاكس: ٠٠٩٦٧-١-٤٧١٧٩٠

E-mail: Dalkitab@yemen .net.ye

مقدمة :

يسعدني وأنا أضع بين يدي القارئ والطالب هذا الكتاب أن أجيب أولاً على السؤال التالي:

ما هي الأسباب التي استدعت القيام بإعداد هذا الكتاب؟، وهل لا يوجد كتب خاصة بفلسفة التاريخ صالحة كمقرر لطلاب أقسام التاريخ ؟.

في الحقيقة هناك العديد من الكتب التي يمكن اختيارها كمقرر في فلسفة التاريخ بصورة عامة، ولكن تدريس فلسفة التاريخ لطالب التاريخ أمر مختلف تماماً. فالكتب الموجودة أُلِفت على مستوى طالب الفلسفة الذي لديه قاعدة معلوماتية -بحكم تخصصه- تساعده على فهم كل ما يقال له، أو كل ما يقرأه، أو تجعله قادراً على القيام بأبحاث في إطار المقرر بشكل طبيعي ليس فيه مشاكل علمية ولا حتى منهجية، وبالتالي فإن تعامل طالب التاريخ معها سيجعله متخبط لا يستطيع الفهم حتى وإن وضح له أستاذه الغموض أو توسع له في شرح النظريات؛ فهو يحتاج فقط ليس لدراسة النظريات بصورة شاملة، وإنما بشكل مختصر يوضح ما يهم جانب التاريخ وحسب. وهذا سيجعله يطبق تلك النظريات على ما درسه من حضارات ودول وممالك دون صعوبة تذكر، ولا سيما ما يتعلق بجانبي النشأة والسقوط، وهو المنهج الذي أتبعناه في تدريسنا لهذا المقرر.

فطلاب التاريخ لم يدرسوا فلسفة التاريخ وحسب، بل عاشوها من خلال تطبيق نظرياتها على ما سبق أن درسوه، ونوقشت أبحاثهم في القاعة، ومنهم من أبدع في التحليل والتفسير، وكذلك في والربط بين النظرية والتطبيق، وبالتالي معرفة ماله قيمة منها، وما لا قيمة له. وهذا الأسلوب في تدريس هذا المقرر -الذي كان في السابق يعد

كابوساً على طالب التاريخ- قد حببهم فيه، وهو ما جعلني أجزم أن تدريس فلسفة التاريخ لا يمكن أن يقوم به فيلسوف، بل يجب أن يقوم به مؤرخ. فالفيلسوف يفهم في النظريات الفلسفية، لكنه لا يستطيع تطبيق تلك النظريات بشكل أبحاث تاريخية يقوم الطلاب بإعدادها. أما المؤرخ فلا يجد صعوبة في فهم النظريات الفلسفية المتعلقة بالمقرر؛ إما لأنه تعامل معها مراراً، أو أنه قرأها كحاجة علمية وثقافية، وبالتالي جمع بين المعرفة النظرية والمعرفة التاريخية، وهو ما يتناسب مع طلاب التاريخ..

أما المبرر الآخر، فهو أن تلك الكتب اشتملت على تفاصيل كثيرة تتعلق بالنظريات الغربية، ومنها من عرج على ابن خلدون، أو رسائل إخوان الصفا، ولكن لم يدخل أي موضوع عن المنظور الإسلامي (القرآني) لتفسير التاريخ، الذي قدم نفسه بقوة منذ الربع الأخير من القرن العشرين، وهو ما أضفناه في هذا الكتاب.

كما وجدنا حاجة لعمل ملحق يضم نماذج من تطبيقات الطلاب لفلسفة التاريخ خلال تدريسنا لهم، بل وحرصنا على تقديمها بعناوينها وأسماء أصحابهما، ولاشك أن تقديم هذه النماذج لن يصل إلى حد إيراد البحث كاملاً، ولكن قصرنا ذلك على الجانب المتعلق بتطبيق النظريات؛ لنبين صحة وجهة نظرنا حول طبيعة تدريس فلسفة التاريخ لطلاب التاريخ من جهة ولنقدم للطالب نماذج مما سبق تقديمه ليكون له مُعيناً على تطبيق النظريات. مع العلم أن جانب التطبيق ليس إلزاماً فالأمر لا يتعدى -في نظرنا- كونه وجهة نظر لمؤرخ أو لفيلسوف، بل أكاد أجزم أن تطبيق نظرية وضعية بحذافيرها في تفسير التاريخ سيقود حتماً للي عنق التاريخ دون الوصول إلى الحقيقة، وبالتالي فإن

دراسة هذا المقرر لا يقصد به التطبيق الفعلي لهذه النظريات في الحياة البحثية، وإنما إعطاء الطالب بعداً أعمق في نظرته لأحداث التاريخ تخرجه من الاستقراء والنقل، إلى الاستقراء والتأمل والتحليل والتعليل والربط والتفسير بما يجعله يكتسب مهارات فكرية لا غنى له عنها.

من جانب آخر أُشيرُ إلى أن هذا الكتاب لم يتناول كل فلاسفة التاريخ ونظرياتهم، وإنما نماذج لما هو شائع وحسب، أما من أراد الاستزادة فرفوف المكتبات تضم عدداً كبيراً من المؤلفات التي تناولت موضوع فلسفة التاريخ وفلاسفة التاريخ والصراع الفكري الذي حدث بين المؤرخين والفلاسفة للإجابة على تساؤلات مثل: هل التاريخ علم ؟. هل هناك فرق بين فيلسوف يؤرخ ومؤرخ يفلسف ؟. هل الفرضيات المسبقة التي يضعها الفيلسوف عند صياغة نظريته في تفسير التاريخ ثم حشد وقائع التاريخ التي تؤيد وجهة نظره أجدى، أم النتائج التي يتوصل إليها المؤرخ بعد دراسة الوثائق واستقراء الأحداث كما هي، هي الأكثر جدوى ؟ ...

وفي الختام أود الإشارة إلى أنني أدخلت بعداً جديداً في تبسيط المادة وذلك بعمل ملخص بشكل معادلات أو أشكال هندسية يتبع كل موضوع يحتاج إلى ذلك. كما ذُيِّلَ الكتاب بنماذج من الأسئلة التي ستعين الطالب على الفهم، وبعض المصطلحات المهمة، وكذلك نماذج ملخصة من الأبحاث التطبيقية للطلاب.

الفصل الأول
مفهوم فلسفة التاريخ

مفهوم فلسفة التاريخ وأهدافها ونظرة المؤرخين لها:

لقد ارتبطت الفلسفة بالتاريخ ليس فقط من حيث هو تاريخ الفلسفة أي رصد تاريخ الفكر البشري وتقلباته بل من حيث هو فلسفة التاريخ أي التفكير في تطور التاريخ وحركته ومحاولة البحث عن قانون يحكم هذا التطوّر ويصف هذه الحركة...، وماتت الفلسفة لدينا لأنه ليس لدينا وعي بالتاريخ، ولا نعرف في أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ نقوم بأدوار أجيال مضت فتنشأ الحركة السلفية أو نقوم بأدوار أجيال قادمة فتنشأ لدينا الاتجاهات العلمانية، أو لا نقوم بأي دور في الحاضر فتنشأ حالة اللاّمبالاة دون أن ندري وبالتالي يستلزم ذلك القيام بدور التنوير من أجل نهضة شاملة[1]، "فضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، فتتربى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية"[2].

ويعد عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ، وذلك عندما ميز بين الظاهر والباطن في

---

[1] – حنفي، حسن: "الفلسفة والتاريخ"، عن موقع:
http://www.balagh.com/mosoa/falsafh/u512cdmq.htm.

[2] – سعيد النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٢٨. العبارة بمصدرها مأخوذة عن كتاب تعريفي عن النورسي (١٨٧٦م-١٩٠٩م) بعنوان: لمحات من حياة وآثار بديع الزمان سعيد النورسي. القاهرة (د.ت). ص ٤.

التاريخ. فقد اعتبر أن التاريخ: "**في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق في القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق**". وابن خلدون يعني بذلك، تجاوز السرد والحشد لأخبار لا رابط بينها، كما انه يجعل التعليل أمر واجب في دراسة التاريخ.

أما أول استعمال للفظ "فلسفة التاريخ" فيعود إلى "فولتير" (١٦٩٤-١٧٧٨م)، الذي قصد به دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف، بمعنى رفض كل رواية غير مقبولة لدى العقل أو محتملة الشك. وكان منطلقه في ذلك، استنكاره أن تصبح دراسة التاريخ أكواماً متراكمة من المعارك الحربية أو المعاهدات السياسية دون معنى مفهوم.

لقد ركز فلاسفة التاريخ عموماً على النظرة الكلية للتاريخ. ففلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ولا تكتفي بمجتمع خاص، وإنما تضم العالم كله في إطار واحد، من الماضي السحيق حتى اللحظة. **ولذلك تعرضت فلسفة التاريخ للنقد من قبل المؤرخين،** وقالوا أن فلاسفة التاريخ يقيمون أبنية ضخمة لا تمكن المادة التاريخية من تحقيقها ولا تجعلها قادرة على تقديم ما لا تملكه. فهم بذلك يتصورون نموذجاً مثالياً صالحاً لجميع الشعوب في كل العصور، بل إن فلسفتهم مزيج من التصور والخيال.

لم يتوقف علماء التاريخ عند ذلك النقد، بل تجاوزوه إلى **نقد مبدأ التعليل** الذي يعد من مرتكزات فلسفة التاريخ، **فقد ميزوا بين التعليل التاريخي والتعليل في فلسفة التاريخ،** وقالوا بأن **الأول** تجريبي بَعدي،

أي أن المؤرخ يستخلص الأسباب بعد دراسة منهجية تفصيلية للواقعة التاريخية موضوع دراسته. أما **الثاني** فتأملي قبلي. وعلى ذلك تكون فلسفة التاريخ تأليف وتركيب أكثر منها تسجيل وتقرير. ففيلسوف التاريخ يضع تاريخاً لكل الأمم والحضارات تحدوه عادة فكرة مسبقة لحل مشكلة طارئة معاصرة لزمنه، ثم يسخر التاريخ كله ماضيه وحاضره بل ومستقبله من أجل تأييد فرضيته التي وضعها لحل هذه المشكلة.

وللمثال على ذلك، فقد أراد "سان أوغسطين" سيطرة الكنيسة على الدولة، فكانت فكرته عن مدينة الله ومدينة الأرض، ثم سخر الحضارات القديمة كلها لتوائم هاتين المدينتين، وسخر "هيجل" التاريخ كله من أجل فكرة ميتافيزيقية سيطرت عليه: هي سيطرة الروح على حريتها في مسار التاريخ، وتحامل "ماركس" على الرأسمالية في بعض البلدان الأوروبية في عصره فسخر تفسيره الاقتصادي للتاريخ من أجل تأكيد فكرته.

كذلك انتقد المؤرخون قول فلاسفة التاريخ "**بوحدانية العلة**": فالتعليل في التاريخ يكثر بكثرة الحوادث وتعددها، بل قد يثبت المؤرخ للحادثة الواحدة مجموعة من الأسباب والعلل، فهم يصرون ليس على دراسة الوقائع الملموسة، بل على جعلها وراء ظهورهم وأقاموا ادعاءً مسبقاً اعتبروه علة مختزلين سائر العلل. ولما كانت علة واحدة لا تصلح لتفسير جميع وقائع التاريخ، فإن هؤلاء الفلاسفة يحاولون سد هذه الثغرات بفرضيات تعسفية لعصور ما قبل التاريخ، وبتنبؤات مستقبلية متخيلة. وفي هذا الصدد نجد تأويل "سان أوغسطين" الديني للتاريخ متضمناً الوقائع من بداية الخلق إلى يوم القيامة، كذلك فسر

"ماركس" المجتمعات البدائية في الماضي السحيق بنفس العلة التي تنبأ فيها بالفردوس الأرضي ممثلاً في المجتمع اللاطبقي في المستقبل.

ومن المعلوم أن التاريخ هو أحداث الماضي بتفاصيلها المختلفة، والماضي يتوقف عند اللحظة الأولى للحاضر، ولكن فلاسفة التاريخ قد تجاوزوا نطاقه إلى المستقبل، بل جعلوا المستقبل هدفه ومن ثم ألغوا واقعية التاريخ واستبدلوا بها جانباً شاعرياً ميتافيزيقياً: الروح التي تعبر عن وعيها بذاتها –المجتمع اللاطبقي- تماماً كما هو وارد في الملاحم والأساطير من انتصار الخير على الشر أو النور على الظلام. ومن هنا كان الانتقاد الموجه لهذا العلم يتلخص في أن فلسفة التاريخ بحث عن المطلق اللامحدود فيما هو محصور محدود؛ لأن طبيعة التاريخ كالبناء تتركب من وقائع كالأحجار وتتصل بأسمنت من الأسباب الجزئية، فإن ارتبط بالفلسفة فقد ألغى ذاته وذلك لاختلاف طبيعة كل منهما: الفكر للفلسفة والواقع للتاريخ تماماً كما تلغى طبيعة الدين إن اتصلت بالفلسفة.

وفي فلسفة التاريخ تناقض: إنهم يدعون مبدأ يتجاوز الزمان والمكان ويحلق متجاوزاً الوقائع، ثم هم يدعون أن هذا المبدأ كامن في صميم وقائع التاريخ، ولكنهم يلتمسون في الوقائع الملموسة والأحداث المحسوسة في التاريخ، ومن ثم فإن زواج الفلسفة من التاريخ مكتوب عليه الإخفاق ولن ينجب إلا الشك لخلو أفكاره من كل مضمون[٣].

وبناءً على ما تقدم يمكن تعريف فلسفة التاريخ: أنها النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي

---

[3]-ما تقدم هو ملخص عن، صبحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ. الإسكندرية (١٩٧٥). ص ١٢٣-١٢٨.

تتحكم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر العصور والأجيال[٤].

٤-الخضيري، زينب: فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ط٢ القاهرة ١٩٨٥. ص ٦٤.

الفصل الثاني
نظريات عامة في فلسفة التاريخ

أولاً: نظرية العناية "التخطيط الإلهي":

سان أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م):

كانت الظروف السياسية مهيأة لظهور نظرية تدافع عن المسيحية، إذ كانت الإمبراطورية الرومانية على وشك السقوط، وكانت الفكرة الشائعة أن انحلال الدولة راجع إلى انتشار المسيحية باعتبارها قد أضعفت من ديانة الدولة وآلهة الرومان، فانبرى سان أوغسطين يدافع عن المسيحية باعتبارها المثل الأعلى للدولة أو بالأحرى مدينة الله على الأرض، وقال إن الشر قد دخل العالم بمعصية آدم، وكما أن **في الإنسان نزعتين**: نزعة حب الذات إلى حد الاستهانة بالله، ونزعة حب الله إلى حد الاستهانة بالذات[5].

ويرى "أوغسطين" أن الناس ينقسمون إلى فئتين هما:

المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان: والتي يعيش فيها الناس بصفاتهم القائمة على الغرائز، وتقوم هذه المدينة على حب الذات، وفيها يعيش الأمراء والأمم الذين تخضعهم المدينة والسلطان بالكبرياء والسلطة والقوة، فيفرح هؤلاء بهذه المغريات لكنها سرعان ما تكون وبال عليهم فينقسمون على أنفسهم بفعل المنازعات والحروب أو حتى

---

[5]-صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ١٦٨.

النصر، وهذه المدينة لا تعرف الخلود[6].

والمدينة السماوية أو مدينة الله: وهي للذين يعيشون على محبة الله وطاعته وعبادته فيستقر فيها الناس على حب الله، وفيها يخدم الأمراء ورعاياهم بعضهم بعضاً في رحاب المحبة، فالأمير يشغل عقله بالتفكير من أجل الجميع والرعية يسمعون ويطيعون. وتتميز هذه المدينة بأنها تجمع أمم شتى على حب الله دون تمييز مما يؤدي إلى حفظ السلام في الأرض وصيانته. ومع ذلك ينحدر الناس نحو الفساد رويداً رويداً على الرغم من صفة الكمال التي خلق الله الناس عليها[7].

واعتبر أوغسطين أن مدينة الله كانت مختلطة بمدينة الشيطان حتى ظهور نبي الله إبراهيم ثم تميزت المدينة السماوية فأصبحت في بني إسرائيل، والمدينة الأرضية في سائر الحضارات التي بلغت ذروتها عند الحضارة الرومانية، ولكنهما مع انفصالهما وتباينهما كانا يتقدمان معاً ويمهدان لظهور المسيح، فبنو إسرائيل مهدوا له روحياً بينما الحضارات القديمة مهدت له سياسياً وفقاً لتدبير من العناية الإلهية، ولقد انتهى التمايز بظهور المسيح، ومن ثم يجب أن تتم الوحدة بين الجانب الروحي ممثلاً في الكنيسة والجانب السياسي ممثلاً في الدولة، ولما كانت الأخيرة تسعى إلى الخبرات المادية الدنيوية بينما تجعلها الكنيسة وسيلة لغاية روحية أسمى فإنه يجب أن تخضع الدولة للكنيسة من أجل تحقيق سعادة الدنيا وسعادة الآخرة[8].

وقد اعتبر البعض أن سان أوغسطين هو مؤسس فلسفة التاريخ؛

---

[6] -بدر، أحمد محمود: "تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة"، مجلة عالم الفكر. ع ٤، مج ٢٩، ٢٠٠١. ص ١١.

[7] -بدر: تفسير التاريخ . ص ١١-١٢.

[8] - صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٦٨-١٦٩.

ولكن هذه النظرية لا يمكن أن يسلم بها أحد غير المسيحيين، بل ذهب بعض الفلاسفة إلى أنها ليست فلسفة ولا تاريخاً وإنما مجرد لاهوت وقصص قام به خيال قديس[٩].

ثانياً: نظرية التعاقب الدوري للحضارات:

فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤م):

ولد الفيلسوف (جيوفاني باتيستا فيكو) في "نابولي" بإيطاليا، وقد عده كثير من الباحثين أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ في العصر الحديث، بل ويعدونه أبا الفلسفة الحديثة[١٠].

لقد انطلق فيكو في نظريته القائمة على مبدأ التعاقب الدوري للحضارات من انتقاداته لطبيعة المعرفة عند الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي ولد سنة ١٥٩٦م والتي عبر عنها في كتابه "تأملات في الفلسفة الأولى التي أثبتت وجود الله، والتفرقة بين العقل والجسم" والتي تقوم على أساس الشك في كل شيء بما في ذلك شكه بالله فقد اتبع منهج التحري والمناقشة حتى وصل إلى النتيجة النهائية التي تأكد له فيها حقيقة وجود الله[١١].

وقد انتقد فيكو فلسفة الشك عند ديكارت بقوله أن الدخول في جدل الأدلة على وجود الله تنبئ عن تطاول لا يليق بالذات الإلهية، وأن عمله هذا كما لو كان الإنسان أصبح يتحكم في الله"[١٢]

---

9 -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٧٠.

10 -انظر، شاخت، ريتشارد: رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود. القاهرة ١٩٩٧م. ص ١٤-٥٤.

11 - شاخت: رواد الفلسفة. ص ١٤ -٥٤. إلى قناعة بأنه أصبح يؤمن بوجود الله ويعرفه لا من باب الإيمان ولكن عن يقين مطلق. ص ٥٤. انظر: شاخت: رواد الفلسفة.

12 -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٥٤.

فكرة الشك عند ديكارت

وفي موضوع الشك يقول ديكارت " لا بد أن أبحث مسألة وجود الله بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك. فإذا اكتشفت أن هناك إلهاً ستعين علي أن أبحث هل يحتمل أن يكون مخادعاً. فإذا لم أهتدي إلى معرفة هاتين الحقيقتين، فإنني لن أرى إمكان تيقني من أي شيء" (ص ٣٣). ثم يقول: "الإله الأسمى الأبدي اللا متناهي اللا متغير العارف بكل شيء والقادر على كل شيء وخالق جميع الأشياء الخارجة عن نفس الله، يتمتع بالتأكيد بحقيقة موضوعية أعظم في ذاتها من تلك الأفكار التي تمثل جواهر متناهية كالبشر والصخور والأشجار". (ص ٣٤). وأخذ ديكارت يورد الأدلة على وجود الله ويناقشها ويدلل على الكمال اللا متناهي لله ثم تساءل "هل بمقدوري أن أوجد إذا لم يوجد كائن مثل الله ؟. من أين إذن استمد وجودي ؟ ... فإما من نفسي أو من والدي أو من أي مصدر آخر .." (ص ٣٧-٣٨) واستمر في فلسفة الشك حتى وصل إلى قناعة بأنه أصبح يؤمن بوجود الله ويعرفه لا من باب الإيمان ولكن عن يقين مطلق. ص ٥٤. انظر: شاخت: رواد الفلسفة.

موقف "فيكو" من المؤرخين:

ولأن فيكو قد اعتمد على الشك في كل شيء فقد وجه نقداً شديداً للمؤرخين بل واعتبر أن كل ما يقومون به وهماً، وذلك على النحو التالي[١٣]:

١-**وهم التهويل والتفخيم**: حيث تُمَجِدُ الأمةُ ماضيها مبرزة

---

[13] - صبحي في فلسفة التاريخ. ص ١٥٦-١٥٧.

جوانب المجد والقوة والثراء، واعتبر أن قيمة كل فترة تاريخية ليست بمقدار ما تم فيها من إنجازات وإنما حسب الدور الذي لعبته في المسار العام للتاريخ.

٢-**وهم الثقافة الأكاديمية**: فالمؤرخ يرى أن الشخصيات التي صنعت التاريخ أو لعبت دوراً بارزاً في أحداثه وتحكمت في مصائر شعوبه، ما كان لها أن تكون كذلك لو لم تكن متعلمة ومثقفة، واعتبر أن نظرتهم تلك نابعة من كونهم على قدر من العلم والثقافة ليس غير. ويرى أن المجد التاريخي والثقافة الفكرية غير مرتبطين، بل قد يكون كثير ممن لعبوا دوراً بارزاً في أحداث التاريخ من أقل الناس علماً وثقافة.

٣-**وهم المصادر (أو التأثر والتأثير)**: أنكر فيكو على المؤرخين قولهم بوجود أشكال من التأثير والتأثر بين الحضارات واعتبر ذلك إنكاراً للطاقة الإبداعية للعقل الإنساني.

٤-**وهم الاقتراب**: قال أنه حين يعتقد المؤرخ أن السابقين أكثر علماً منا بالنسبة للعصور التي هي قريبة العهد بعصرهم، فهو يعيش في وهم يعتمد على أنه يتصور التاريخ كذاكرة الإنسان كلما كان موضوع التذكر أقرب عهداً كان اكثر في الذاكرة ثباتاً ووضوحاً.

تستند نظرية فيكو في التعاقب الدوري للحضارات إلى المسلمات الآتية:

١-تبدو عصور التاريخ كما لو كانت ذات خصائص عامة، فمع أن لكل عصر طابعه النوعي الذي يتضح في التفصيلات فإنه بين العصور المختلفة خصائص مشتركة.

٢-كل فترة تاريخية تتبع أخرى على نفس الخط ففترات البطولة تعقبها فترة يسود فيها الفكر على التخيل والنثر على الشعر والصناعة على الزراعة وأخلاق السلم على أخلاق الحرب، وهذه يتبعها تـدهور إلى ما يشبه بربرية اليونان القديمة. إن اختلاف المسيحية عن الوثنيـة يثبت أن التاريخ في تجدد دائم والتعاقب الدوري فيه لا يسمح بالتنبؤ.

٣-الحركة الدائرية بين هذه الأدوار لا تعني أن مسار التـاريخ كعجلة تدور حول ذاتها ولكنها حركة حلزونية؛ لأن التـاريخ لا يعيـد نفسه على نفس النمط ولكنه يأتي بصور جديدة في شكل مخالف لمـا مضى[١٤].

أما جوهر هذه النظرية فتقوم على أساس تقسيم التاريخ إلى أقسام ثلاثة، أوضحها في كتابه "**العالم الجديد في الطبيعة المـشتركة بـين الأمم**"، واعتبر فيه أن الإنسان ليس مجرد عقل محض وإنما عضواً في جماعة، وبما أن العلوم الطبيعية لا يمكن أن تفسر تاريخه فقد انطلـق في تفسيرها من منطلق جديد اعتبره علماً له قصب السبق فيه وذلـك وفقاً لما يأتي:

أولاً: دخول الإنسان بوابة الحضارة ليمر بعدها في ثلاثة أدوار هي:

(أ)-**دور الآلهة:** وهي مرحلة الطفولة في حياة الإنسانية، وتشمل عصور ما قبل التاريخ والثقافات البدائية، والرابطة الاجتماعية القائمة على النسب. وفي هذا الدور لم يدون الناس تـاريخهم وإنمـا تنـاقلوه مشافهة بشكل قصص أسطورية.

(ب)-**دور الأبطال:** وفيه يتغير المجتمع بفعل الأبطـال أشـباه

[١٤] – صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٥٩–١٦٠.

الآلهة، التي يحكم فيه القوي بأمر إلهي. ويظهر في هذا العصر مؤسسو المدن التي يتغلب فيها دور الجماعة على دور الفرد مع صرامة في التعامل والتزام بدقائق التفاصيل.

(ج)-دور البشر: وهي مرحلة النضج والاكتمال في حياة المجتمع على أساس العدالة والصالح العام وأداء الواجب المدني طوعاً، وإعادة التفكير في الأساطير السابقة، كما تتطور اللغة والأدب، ويؤرخ للأعمال العظيمة والمهمة. وفي مجال الحكم يصبح الشعب مصدر السلطات فتقوم حكومات ديمقراطية، وإذا وجدت ملكيات فإنها تتواضع وتفقد تعاليها وتضطر لمسايرة المتغيرات.

ثانياً: دخول الإنسان للحضارة:

واعتمد فيه فيكو على ما ورد في الكتاب المقدس عن بداية الخلق حتى الطوفان، ثم تكون المجتمع بفعل أحداث متتابعة مروا بها وفقاً للآتي.

(أ)-خرج الناس بعد الطوفان هائمين على وجوههم، وفقدوا قدرتهم على الكلام، كما كانوا يشبعون غرائزهم دون ضوابط.

(ب)-عندما كانت الأرض تجف تصاعدت منها أبخرة كثيفة أدت إلى أمطار عاصفة برعود وصواعق ذعر منها هؤلاء الناس فمروا بأول تجارب الخوف فكانت بداية التأمل في الكون.

(ج)-ونتيجة لذلك نظموا علاقتهم الجنسية بالزواج والأسرة ودفنوا موتاهم، ونشأ عندهم الدين، واعتبر "فيكو" أن هذه هي الأعمدة الثلاثة التي بنى عليها المجتمع لنقل الحضارة.

يلي هذه المرحلة الانهيار والعودة نحو البداية، فالمرحلة الأخيرة لا تدوم بل تنهار بفعل الترف وحب المال وظهور الطبقات الاجتماعية

وإفساد النظم الاجتماعية. مما يؤدي إلى ضعف المجتمع فيعجز عن مقاومة الغزوات الأجنبية، فيعود إلى البربرية بدرجة أعلى مما كان عليه. ثم يقرر أن كل ما سبق هو بفعل إلهي لا بفعل بشري، منكراً أي دور للتأثير والتأثر بين الحضارات[١٥].

أقدم الأمم ومسيرة تطورها:

إن أقدم الأمم عند "فيكو" هم العبرانيون الذين كنوا معزولين عن العالم، ويعتقد أن العناية الإلهية قد شاءت بهذا العزل أن تحول دون تدنس دين الله الحق باختلاط شعبه المختار مع الأجانب. ووفقاً لذلك قدم فيكو لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ القديم منذ خلق العالم مستنداً إلى التوراة. فأبناء نوح بعد الطوفان لم يسيروا على نمط واحد، بل رسم لهم مسيرة تطورية على النحو التالي:

*حافظ أبناء سام على لغتهم وعاداتهم.

*تشتت أبناء حام ويافث في الأرض وعاشوا عيشة أقرب إلى الحياة الحيوانية ففقدوا مزاياهم البشرية، وأصبحوا ضخام الأجسام.

*أعقب ذلك انقسام البشر إلى عبرانيين من سلالة سام وإلى عمالقة من نسل يافث وحام.

*شعر العمالقة بالخوف من بعض الظواهر الجوية كالبرق والرعد والصواعق، واعتبروها غضباً من الآلهة فتحايلوا على إرضائه بالكهانة.

*وحينما استقرت الأسر بسبب حرفة الزراعة وملكية الأرض أخذ العمالقة يفقدون ضخامة أجسامهم، ولكن بعضهم بقي على تشرده.

*ثم أصبح هؤلاء المشردون خدماً وموالي للمزارعين من

---

[15] - انظر بدر: تفسير التاريخ. ص ٢٣- ٢٤.

أصحاب الأراضي عندما يتم أسرهم نتيجة الصراعات أو غير ذلك.

*نتج عن ذلك ظهور نظام الرق.

*ثم حدث تطوراً جديداً تمثل في ظهور طبقة النبلاء من بين الآباء أو الرؤساء من أصحاب الأراضي، وفي المقابل شكل الخدم والعبيد طبقة الرقيق.

*ونتيجة لذلك تكون المجتمع الأرستقراطي.

*ولكن لما قويت شوكة رقيق الأرض بدأ هؤلاء يحصلون على بعض المزايا فتكون النظام الديمقراطي.

*أدى هذا التطور إلى الفوضى، فنتج عنه ظهور الحاكم المطلق فبدأ نظام حكم الفرد[16].

مفهوم فيكو للعناية الإلهية:

ربط فيكو كل شيء بالعناية الإلهية ورغبتها، إلا أنه أتي بتفسير تعسفي ومشوه لهذا الدور، ويمكن إجراء مقابلة بين المتناقضات التي رسمها لكي يسهل فهمها وعلى النحو التالي[17]:

في الجانب الاجتماعي

ضخامة العمالقة ← مصارعة الوحوش في الغابات

ظهور الوثنية ← لكي يخاف الإنسان غضب الآلهة

الاعتقاد بالكهانة ← لتبرير سلوك الإنسان ونظامه المزور

التباس الحق بالباطل ← تمهيد للوصول إلى الحق

تمييز العبرانيين عن العمالقة ← لإظهار عظمة ونقاء العبرانيين

[16] – انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٦١-١٦٢.

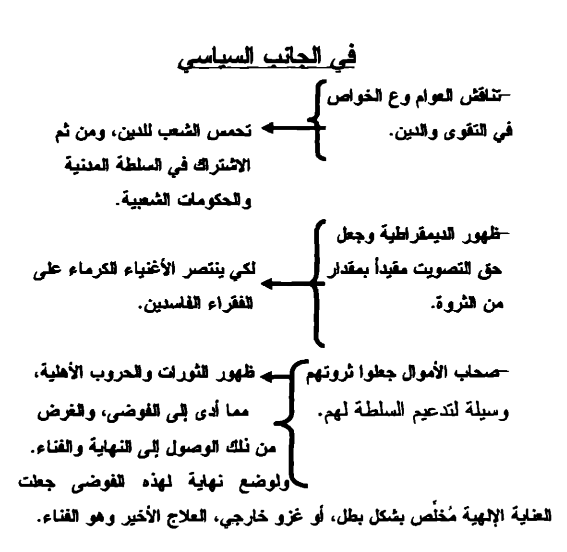
[17] –انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٦٣-١٦٤.

في الجانب الديني

-الشهداء المسيحيون.
-تعاليم آباء الكنيسة ومعجزات القديسين، في مقابل حكمة اليونان الجوفاء.
-قيام أمم محاربة مثل: البرابرة والأوروبيون في الشمال، والعرب المسلمون في الجنوب (وهم معارضون لألوهية يسوع).

← كل ذلك أدى إلى تثبيت العقيدة المسيحية وإظهار للدور الأول مرة أخرى، ممثلاً في الملوك والباباوات حماة الدين.

في الجانب السياسي



-تناقض العوام وع الخواص في التقوى والدين.
← تحمس الشعب للدين، ومن ثم الاشتراك في السلطة المدنية والحكومات الشعبية.

-ظهور الديمقراطية وجعل حق التصويت مقيداً بمقدار من الثروة.
← لكي ينتصر الأغنياء الكرماء على الفقراء الفاسدين.

-أصحاب الأموال جعلوا ثروتهم وسيلة لتدعيم السلطة لهم.
← ظهور الثورات والحروب الأهلية، مما أدى إلى الفوضى، والغرض من ذلك الوصول إلى النهاية والفناء.

ولوضع نهاية لهذه الفوضى جعلت العناية الإلهية مُخلِّص بشكل بطل، أو غزو خارجي، العلاج الأخير وهو الفناء.

ثالثاً: نظرية التقدم "الفعل الإنساني":

١-فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م):

يعد "فولتير" من فلاسفة عصر التنوير. وهو العصر الذي ظهر عقب الكشوف العلمية في القرن السابع عشر، وقد كان هؤلاء الفلاسفة أول من وسع نظرة الأوروبي إلى التاريخ، فلم يعد اهتمامهم محصوراً في تاريخ اليونان والرومان دون سائر الحضارات، كما لم يعد الشعب العبراني هو وحده الجدير بالاعتبار بين شعوب الشرق القديم، كذلك أظهروا بوضوح عدم النزوع لأي شكل من أشكال التعصب الديني والقومي. فقد تجاوزوا علاقات السياسة وأخبار الحروب؛ لأنها لا تكشف عن شيء من التقدم، واهتموا بأوجه النشاط الإنساني كالعلم والفن والفلسفة ولأدب والتكنولوجيا[١٨].

أما فولتير فقد قدم نظريته في كتاب له بعنوان "**مقالة عن أخلاق الأمم وروحها**" قدم له بمقدمة **استخدم فيها لأول مرة مصطلح "فلسفة التاريخ"**، وتحدث عن الحضارات الصينية والهندية والفارسية ولإسلامية بتعاطف، وبين مدى إسهام كل منها في حضارة العالم عامة. وبالرغم من أنه لم ينس الحديث عن تفوق أوروبا بسبب الحرية الفكرية والعلمية كما يرى إلا أنه آمن بوحدة العقل البشري[١٩].

ورأى فولتير أنه من الخطأ الظن أن اليهود كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية أو غيرها لقولهم بإله واحد في عالم وثني، بل لأنهم يمقتون الأمم الأخرى، ووصفهم بأنهم برابرة يقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة. وقال إن هذا الشعب اللئيم المخرف الجاهل العاطل عن

---

[18] -سالم: جدلية التاريخ والحضارة. ص ٢٤١.

[19] -بدر: تفسير التاريخ. ص ٢٠.

الإبداع الفكري كان يزدري أكثر الأمم حضارة، إنهم أحقـر شـعوب الأرض، قطاع طرق ممقوتون مخرفون همجيون، منحطون في الفقر وقحون في الغنى، إذا كتب لهم الظفر فتكوا بالمغلوبين وبطشوا بالنساء والأطفال في نشوة جنونية وإن كتبت عليهم الهزيمة تجدهم في مذلـة مشينة ومهانة مزرية، ثم يتساءل، هل شمل الله بعنايته هـذا الـشعب الوضيع ليكون شعب الله المختار-كما تقول التـوراة-، أو ليكونـوا مخلِّصي الجنس البشري ؟. ومن ناحية أخرى اعتبر فولتير أن الاستناد إلى قصص العهد القديم محض خطأ كما أن اتخاذها أساساً للتـأريخ لا يمكن قبوله، ليس لمبالغة هذه القصص في الاهتمام بالعبرانيين واحتقار شعوب الشرق الأخرى فحسب، بل لأن هذه القصص موضع شك من الناحية التاريخية. كما انتقد مفهوم العناية الإلهية كأساس لتحديد مسار التاريخ كما ذكر الفلاسفة السابقون[٢٠].

٢-كوندرسيه (١٧٤٣-١٧٩٤م):

يعد "كوندرسيه" من أبرز فلاسفة عصر التنوير، والرائـد الأول لنظرية التقدم، وقد ظهرت وجهة نظره في الكتاب الذي نُـشِر سـنة ١٧٩٥م بعد وفاته بعنوان "رسم لوحة تاريخيـة عـن تقـدم الفعـل البشري"، حيث تجلى فيه مدى تأثره بشعارات ومبادئ الثورة الفرنسية التي عاصرها. وقد اتضح ذلك في نظرته لمستقبل التقدم الذي أزيحت من أمامه العقبات المتمثلة في الحكم الفردي، وحكم النخبة والطغيـان، فضلاً عن شيوع الجهل والإخضاع السياسي والاجتماعي، هذه العقبات

[20] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٨٣-١٨٤.

التي انهارت تحت تأثير الثورة السياسية والتكنولوجية والعلمية[21].

ويرى كوندرسيه أن الحضارة مرت بمراحل عدة، وأن درجة تقدم المعارف الإنسانية لعبت دوراً رئيسياً في صياغة وتحديد تلك المراحل التي هي في نظره:

١-مرحلة الصيد ← ٢-مرحلة الرعي. ← ٣-مرحلة الزراعة. ← ٤-مرحلة العلوم والفلسفة اليونانية. ← ٥-مرحلة الحضارة الرومانية. ← ٦-مرحلة الجمود العلمي. ← ٧-مرحلة اختراع الطباعة. ← ٨-مرحلة التحرر الفكري. ← ٩-مرحلة الثورة الفرنسية. ← ١٠-يلي ذلك المرحلة التي ستحقق السعادة للجميع[22].

كما يرى كوندرسيه أن:

١-تقدم الوعي يعتمد على تقدم المعارف.

٢-ضرورة إعطاء أهمية لدور الجماهير في صنع التاريخ وليس للعظماء وحدهم؛ لأن النخبة هي سبب الجهل والفساد والظلم والتدهور.

٣-رفض دور المؤسسات والأنظمة في تقدم المجتمع[23].

أما نجاح التقدم عند كوندرسيه فيعتمد على:

١-المساواة بين الأفراد على مستوى الداخل، وبين الأمم في العالم.

٢-الكمال الخُلقي الواقعي للإنسان.

واعتبر أن توقف النمو والتقدم يحدث في الحالات التالية:

---

21 -الكحلاني، حسن محمد: فلسفة التقدم دراسة في اتجاهات والقوى الفاعلة في التاريخ. القاهرة، ط١، ٢٠٠٣. ص ٧٦.

22 - الكحلاني: فلسفة التقدم. ص ٧٧.

23 -الكحلاني: فلسفة التقدم. ص ٧٨.

١-عندما تسيطر الخرافات (قصد بها الدين) على ثقافة العامة.

٢-تكييف الواقع وإخضاعه لأفكار الفلاسفة.

٣-إعطاء أصحاب النفوذ والسلطان الأولوية للذات ثم جعل ذلك أفكاراً تسيطر عليهم وعلى سلوكياتهم[٢٤].

ومع ذلك يؤخذ على مفكري عصر التنوير كافة أنهم حكموا على عصور الماضي بمعايير حاضرهم، وتجاوز نقدهم رجال الدين إلى أن مس الدين نفسه فاعتبروه خرافةً وفكراً غيبياً[٢٥].

رابعاً: التقاء الفعل الإنساني بالتدبير الإلهي:

تفسير "كانط" للتاريخ بمفهومه العالمي[٢٦]:

يرجع الفيلسوف الألماني "عمانوئيل كانت" (١٧٢٤-١٨٠٤م) مسار التاريخ إلى عناية الله بالرغم من عبث الإنسان وشروره، وقد سادت هذه النظرية حيث ساد التفكير الديني في المجتمع.

وقد طبق كانط آراءه الفلسفية بصدد غائية أفعال الإنسان على التاريخ على النحو التالي:

ملاحظة: (استخدم كانط لفظ الطبيعة بدلاً عن الله).

تبدو الأفعال الإنسانية مستندة إلى حرية الإرادة وهذا يتضمن أنها لا تخضع لقوانين كقوانين الطبيعة، حقيقة أن حرية الإرادة لا تعني أن الناس يسلكون مسلك الحيوانات ولكنهم أيضاً لا يتصرفون بأحكام ولا تصدر أفعالهم دائماً عن تعقل واتزان. فالحرب مثلاً تبدو من نسيج

[24] -الكحلاني: فلسفة التقدم. ص ٧٩.

[25] - انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٨٧-١٩٠.

[26] -صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ١٩٧-٢٠٣.

الحماقة وصادرة عن شهوة التدمير، فهل هناك من هدف كـــامن وراء ما يبدو كأنه فوضى ؟ هذه هي غاية التاريخ: الكـــشف عـــن النظـــام والاطراد اللذين يكمنان وراء ما يبدو فوضى.

والقول بوجود غاية من أفعال الإنسان مع الإقرار بما تبدو عليه من فوضى يحتاج إلى تفسير فلسفي على النحو الآتي:

١-غائية الاستعدادات الطبيعية في الإنسان:

فكل عضو في الطبيعة يؤدي وظيفة أو هدفاً، والقول بغير ذلك يتعارض مع غائية الاستعداد في الإنسان.

٢-غائية الطبيعة في الإنسان النوع لا الفرد:

ولا يتحقق ذلك على المستوى الفردي؛ لأن عمره لـــن تغطـــي غاياته، ولذلك تنقُل الطبيعة الخبرات والمعارف المتراكمة من جيل إلى جيل في سلسلة متصلة، فتحقق بذلك أغراضها في الإنسان.

٣-تجاوز الإنسان لنطاق التنظيم الآلي الحيواني من خلال الفعل والارتفاع عن الفطرة البدائية إلى المهارة الناتجة عن استخدام العقل.

٤-عدوان الإنسان وحروبه التي تبدو لا اجتماعية ولا أخلاقيـــة تكشف آخر الأمر عن وجود نظام أبدعه إله حكيم.

إن "الطبيعة" تريد من الإنسان أن يخرج من الركود والتراخي إلى العمل والكفاح، مما سيؤدي إلى نمو مواهبه وزيادة قـــواه علـــى الرغم من الكثير من الشر الذي سيرافق ذلك، وهو ما يكشف عن نظام إلهي متقن.

٥-ارتباط حرية الإنسان بقوانين خارجية:

يطلب الإنسان لنفسه الحرية المطلقة من كل قيد ولكن حياته مـــع الآخرين تحول دون أن تعيش في حرية الوحوش، وهكذا فإن التنـــافس

بين الناس هو الذي أدى إلى نشأة نظام اجتماعي سياسي وقيام دول وحضارات.

٦-القانون الكامن وراء الحرب والثورات:

ستظل العلاقات بين الدول تخضع للمصالح المتعارضة، ومن ثم التسلح والحروب والاستعدادات العسكرية التي لا تنتهي، ولكن ليست إلا محاولات لإيجاد أحوال جديدة لبعض الدول، وإذا لم تستطع الدول أن تتماسك في داخلها مرت بثورات.

وبذلك يكون "كانط" قد جعل للفلسفة الدور الأكبر في صياغة أفكاره على حساب الواقع والتاريخ، وجعل أفعال الإنسان بخيرها وشرها، انعكاس للتخطيط الإلهي.

الفصل الثالث

أبعاد فلسفة التاريخ

١-البعد الميتافيزيقي لدى هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م):

يمكن تعريف نظرية الفيلسوف الألماني "هيجل" بأنها مزيج من المتناقضات. فجوهر التطور عنده إنما هو نتيجة صراع المتناقضات (الذي أطلق عليه **الديالكتيك**) على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدي بها آخر الأمر إلى تحطمها وتحولها إلى شيء آخر، ثم ينبثق عن هذا التحطم ظاهرة جديدة تدفع الظاهرة السابقة، ولكنها تحتوي في ذاتها عوامل تحول جديد. على أن هذا كله لا يحدث نتيجة حرية التصرف حتى وإن كان مصدره الإنسان، بل يتم بأمر **روح العالم** التي تستخدم كل الوسائل للوصول إلى تحقيق ذاتها. فالأبطال والعظماء لا يتميزون عن سواهم من البشر إلا بكونهم يسمعون نداء الروح بوضوح أكثر من بقية الناس ولا يعيرون سمعاً لنصح الجماهير الذين لا يمتلكون ذهناً صافياً قادر على التقاط إشارات الروح، فهم يتبعون القادة بفضل قوة الروح التي جعلت هؤلاء القادة العظماء معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد بل إن هذه الأعمال أسمى من أن توزن في ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة، فهم وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وما هو المصير. **ومن ثم لا يتحقق النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم إلا بالدولة**، ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة وتكون جزءاً من المجتمع. فهو

يرى أنها الشكل الذي تتجسد فيه الروح تجسداً كاملاً. وهذا عنده يمثل "اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية" فالإرادة الذاتية والاندفاع الذاتي هما من يحرك البشر ويدفعهم إلى النشاط الذي يحقق الوجود العملي. وبما أن الدولة تجسيداً للروح فهي تمثل الحياة الخُلقية وهي التي أكسبت الأفراد الأخلاق ومن ثم فهي فكرة إلهية توجد على الأرض[27].

إذاً ما هي الروح التي قصدها هيجل ؟

الروح عند هيجل قوة هائلة جوهرها الحرية ولا يوجد خارجها أي قوة أخرى ممكن أن تؤثر فيها أو تتحكم بها.

وكيف تؤثر الروح في حركة التاريخ ؟

١-يعبر الناس في مسرح التاريخ عن مصالحهم في حرية تامة، والدليل على ذلك أننا نربط مسار التاريخ بأفعالهم فنشيد بهم أو نذمهم.

٢-إن الناس ف التاريخ يفعلون أشياء لا يدركون نتائجها فتاتي في كثير من الأحايين معاكسة لأهدافهم ورغباتهم، مثال ذلك:

(أ): حينما اشترى الإقطاعيون الرومان أراضي الفقراء أدى ذلك إلى ثورة الفقراء وتدمير الجمهورية.

(ب): مات الإسكندر شاباً دون أن يحقق ما يريد، وقتل القيصر دون أن يحقق ما يريد، ونفي نابليون على عكس ما أراد.

فما هو السبب في ذلك ؟

السبب في ذلك هو الروح التي أوجدت الصراع بين القوى والعوامل المتعارضة لتعبر عن وعيها بذاتها أو تحقق ذاتها من خلال هذا الصراع.

(ج): أطلق هيجل على الحرية التي يتصرف فيها الأفراد اسم

[27] -انظر خليل، عماد الدين: التفسير الإسلامي للتاريخ. بيروت، ط١، ١٩٧٥ص ٢٣-٢٨.

"الحرية الضرورة" واعتبر هذه الحرية أنها الجدل الذي يتحقــق فــي التاريخ (الفعل ورد الفعل)، ومجمل تلك الأفعال هي خيوط في نــسيج عام هو هدف الروح من مسار التاريخ.

إذن ما هو دور الدولة التي منحها هيجل قدسية خاصة ؟

حدد هيجل دور الدولة في الآتي:

١-الدولة هي وحدة دراسة التاريخ.

٢-الدولة هي الصورة الواقعية للحرية، وهي موطن الــروح أو الفكرة الإلهية متجسدة على الأرض.

٣-الدولة هي الصورة النهائية التي عنــدها تــشكل موضــوع التاريخ؛ لأن كل عمل بشري أو نشاط فكري يتحقق من خلالها.

٤-الدولة لا تحد من حرية الفرد. ولا تقيد حريتــه التــي فطــر عليها.

٥-الدولة لا تقيد حرية الفرد، وإنما تقيد غرائزه الوحشية، وهي وسيلة لتحقيق الوعي بالحرية من خلال التناقض.

٦-عندما تميز الدساتير في الدولة بين من يَحكم ومن يُحكم، ومن يأمر ومن يطيع، ومن هو الحاكم الصالح ومن هو المنحــرف. فهــذا شكل من أشكال التناقض في مفهوم الحرية.

٧-الدولة تعبر عن إرادة أعلى من الأفراد، وخاصة عن نطــاق مطالبهم وليس للأفراد سلطان عليها لأنها تنتمي إلى عالم الروح.

٨-يرى هيجل أنه لا قيمة للفرد خارج نطاق الدولة وإرادتها[٢٨].

---

28 -انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٠٧-٢١٢، سالم: جدلية التــاريخ والحــضارة. ص ٢٦٠-٢٦٥.

٢-البعد الاقتصادي لدى "كارل ماركس" (١٨١٨-١٨٨٣م):

تعريف

في الحديث عن النظرية الماركسية جانبان: الأول يتصل بالاشتراكية العلمية التي تهم مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع. والثاني يتصل بتطور التاريخ على أسس اقتصادية. وللتفسير الاقتصادي للتاريخ بدوره جانبان: الأول يتصل بالمنهج والثاني يتصل بالمذهب، أما المنهج فهو الديالكتيك الهيجلي، وأما المذهب فهو المادية وإن اختلفت في مفهومها عن سائر المذاهب المادية في الفلسفة. (صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢١٨-٢١٩).

***القوانين الأساسية التي تشكل المنهج الماركسي في تفسير التاريخ[29]:**

١-قانون وحدة وصراع المتضادات:

يعد هذا القانون جوهر الديالكتيك ونواته، فهو يكشف عن مصادر الحركة المستمرة وتطور العالم المادي والأسباب الحقيقية لذلك (من وجهة النظر الماركسية). وبموجب ذلك فإن تطور مختلف الأشياء والظواهر في الواقع يدلل على أن الجوانب المتضادة لا يمكن أن تتعايش سلمياً في شيء واحد: ذلك أن الطابع المتناقض للمتضادات التي تنفي بعضها بعضاً يولد بالضرورة صراعاً فيما بينها، ولا يمكن للجديد أن لا يدخل في تناقض وصراع مع القديم. ومن هنا يكون التناقض والصراع بين المتضادات هو بالضبط المصدر الأساسي لتطور المادة والوعي. كما أن وحدة المتضادات هي شرط ضروري للصراع، حيث أن الجوانب المتضادة قبل أن تتصارع لا بد لها من أن توجد في الشيء الموحد أو الظاهرة الموحدة.

٢-قانون تحول التغيرات الكمية إلى كيفية:

إن تحول التغيرات الكمية إلى كيفية هو قانون عام لتطور العالم المادي. ووحدة الكمية والكيفية تسمى "معيار" والمعيار هو الحد أو الإطار الذي هو تآلف محدد بين الكمية والكيفية يؤدي إلى تبدل الشيء وتحوله إلى شيء آخر. فمثلاً: رفع درجة حرارة الماء إلى أكثر من

---

29 -انظر افاناسييف.ق: أسس الفلسفة الماركسية. ترجمة: عبد الرزاق الصافي، بيروت، ط٤، ١٩٨٤. ص ٦٩-١٠٢.

مئة درجة يؤدي إلى تحوله إلى كيفية أخرى وهي البخار. والبخار له خصائص تختلف عن خصائص الماء، فهو ليس له القدرة على إذابة السكر والأملاح، في حين أن هذه المواد تذوب في الماء، وهذا يعني أن التغيير يتم عن طريق الطفرة.

٣-قانون نفي النفي:

يكشف هذا القانون الاتجاه العام ووجهة تطور العالم المادي (كما رآه ماركس). فالتطور لا يتوقف بانبثاق الجديد، كما لا يظل الجديد جديداً، فتطوره يعني التهيئة لظهور شيء جديد آخر أكثر جدة، وهذا هو نفي النفي. أي أن الجديد ينفي القديم ثم يتحول بدوره إلى قديم فينفيه جديد آخر ويستمر الأمر هكذا إلى ما لانهاية، وبالتالي فإن التطور يمثل مجموعة من النفي لا عد لها، ولا تنحصر في شيء بعينه وإنما تشمل كل المتغيرات ...

التفسير المادي الماركسي للتاريخ[30]:

يمكن بإيجاز شديد تلخيص وجهة النظر الماركسية في التطور منذ بدء الخليقة بشكل معادلة تشير فيها الأسهم إلى الانتقال من مرحلة إلى أخرى وذلك على النحو التالي:

الملكية عامة والنظام السياسي غير واضح ←تصدع هذا المجتمع ←انفصال القبائل الرعوية عن المشتغلين بالحرف الأخرى ←ظهور نظام المقايضة← ظهور الملكية الخاصة بسبب الإحساس بتملك سلعتها ←التوسع في ملكية

---

[30] -انظر افاناسييف: أسس الفلسفة الماركسية. ص ١٥٥-١٩٨.

الأرض ⟵ ظهور النظام الإقطاعي ⟵ تحول الإقطاعيين إلى حكام يتحكمون بالرقيق والتجار ⟵ صراع طبقات داخل المجتمع الإقطاعي ⟵ قيام كل إقطاعي بتشكيل جيش خاص لحماية مصالحه ⟵ بدأ الاقتصاد ينتقل إلى المدن من خلال التجار ⟵ انجذبت جماهير الريف إلى المدن مما أدى إلى نموها ⟵ هذا أدى إلى تعارض مع النظام الإقطاعي القائم على الحسب والنسب والعبودية والوراثة ⟵ ظهور البرجوازيين كحكام واعتبار الإقطاعيين طبقة رجعية ⟵ نتج عن ذلك ثورات سياسية قادت إلى النظام الرأسمالي ⟵ مما أدى إلى استخدام واسع للتكنولوجيا ⟵ أصبح العمال ينتجون بأجور زهيدة وفائض القيمة تذهب للملاك ⟵ حدث تنافس بين كبار المنتجين وصغارهم ⟵ أدى ذلك إلى إفلاس الصغار واتحاد مصانع الكبار ⟵ انعدام التنافس وظهور الاحتكار ⟵ اندماج المفلسين مع العمال فشكلوا طبقة البروليتاريا ⟵ الصراع بين الرأسماليين والعمال وزيادة الهوة بينهما ⟵ إزاحة الكثرة المنتجة للقلة المالكة ⟵ سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج ⟵ الوصول إلى المجتمع اللا طبقي (الشيوعية).

وبذلك جعل "ماركس" التطور عملية لا نهائية ...

وفيما يتعلق بسقوط الحضارات، يرى ماركس أنها تسقط عندما ينشأ تسلط طبقي جديد يبلغ ذروته في سلطة سياسية جديدة، أي أن أول عامل من عوامل سقوط الحضارة عنده هو تسلط طبقة السلطة السياسية على المجتمع وما يتبع ذلك من تداعيات[31].

[31] -هيشور، محمد: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها. القاهرة، ط1، 1996. ص 92.

٣-البعد البيولوجي لدى اشبنغلر (١٨٨٠-١٩٣٦م):

قدم الفيلسوف الألماني "اشبنغلر" للعالم سنة ١٩٢٠م كتابه الذي انتهى من كتابته سنة ١٩١٧م بعنوان "انهيار الغرب" والذي ترجم إلى العربية بعنوان "تدهور الحضارة الغربية" والمكون من مجلدين ضخمين، قدم رؤية لتاريخ العالم تناولت أدق التفاصيل، وشملت مختلف العلوم وكل شيء يدخل تحت مصطلح "حضارة"، وقدم اشبنغلر في مؤلفه السالف الذكر نظرية جديدة في نشأة الحضارة وتطورها وتدهورها، استفاد في الكثير من تفاصيلها ممن سبقوه، وقدم فيه رؤيته الخاصة المعتمدة على تفاصيل غزيرة جداً العديد من المواقف التي نعرض لأهمها فيما يلي:

١-أنكر أن التاريخ علم:

اعتبر اشبنغلر أن التاريخ هو شرط الكينونة "في المركز وفي البؤرة"، ولذلك فإن كل ما هو مادي مجرد عضد لهذا الشرط. ومن ثم فلا يوجد علم تاريخ إنما يوجد علم مساعد للتاريخ يؤكد ما كان وما حدث .. فالمعلومات التاريخية لا تتكرر، أما المعلومات الطبيعية فتكرر نفسها ولذلك يوجد فرق بين الاثنين: فالأولى وقائع، والوقائع تتبع الواحدة الأخرى، والثانية حقائق، والحقائق تنشأ الواحدة منها عن الأخرى. وهذا هو الفرق بين "متى" و "كيف". ولذلك كلما ابتعد البحث التاريخي عن العلم الحقيقي، فإن ذلك هو أفضل للتاريخ وأحسن، فالتاريخ يحمل طابع الحقيقة المفردة التي لا تتكرر، أما الطبيعة فتحمل طابع المحتمل حدوثه دائماً[32].

---

[32] -اشبنغلر، أسوالد: تدهور الحضارة الغربية، ج١. ترجمة أحمد الشيباني، بيروت ١٩٦٤. ص ٢٩٤-٣٠١.

٢-علاقة التاريخ بالفلسفة:

يرى اشبنغلر أن جميع المؤلفات التاريخية الأصلية هي في ذاتها فلسفة، إلا إذا كانت مثل المؤلفات المناهضة للاجتهاد، لكنه يحذر من أن منهج الفيلسوف سيكون عرضة لخطأ خطير ودائم إذا ما اعتقد بخلود صحة النتائج التي وصل إليها، فهو بعمله هذا يتجاهل أن كل فكرة تعيش داخل عالمها التاريخي، وأن مصيرها نتيجة لذلك مرتبط بمصير الأخلاقية العام. فالحقائق الخالدة معدومة الوجود هناك، وكل فلسفة هي تعبير عن ذاتية زمنها فقط، وخلود الأفكار الصائرة وهم باطل، فالجوهري فيها هو نوع الرجل الذي يأتي ليعبر عنها[٣٣].

٣-العلية في التاريخ:

يعترض المؤرخون على استخدام مقولة العلية في التاريخ لأنها تفيد الضرورة من جهة ولأنها تلحق التاريخ بالعلوم الطبيعية من جهة أخرى، ويتخذ اشبنغلر جانب المؤرخين الذين يحاولون توكيد كيان التاريخ إزاء طغيان العلوم الطبيعية ومنهجها في القرن التاسع عشر، **ومن ثم فإنه يستبدل بمقولة العلية** مقولة أخرى يراها أكثر ملائمة لفهم سياق التاريخ، إنها **مقولة المصير**[٣٤].

وفي هذا الصدد كتب اشبنغلر: " المصير أبدي الشباب، أزلي الصبا. إن ذاك الذي يستعيض عن المصير بمجرد سلسلة من العلل والمعلولات فإنه يرى حتى في الشيء ما الذي لم يتحقق بعد افتقاراً إلى الاتجاه. أما ذاك الذي يعيش متجهاً نحو شيء ما في فيض أسمى من الأشياء فإنه لن يحتاج لأن يشغل نفسه بالأهداف والمقدرات وذلك

---

33 -اشبنغلر: تدهور. ص ١٠٤-١٠٥.

34 -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٤٣-٢٤٤.

لأنه يُحس بأنه هو نفسه المعني لما سيحدث"[35].

٤-العلاقة بين الحضارات والتاريخ:

إن الحضارات هي تراكيب عضوية، ولأن التاريخ هو مجموع سيرتها الشخصية، ووفقاً لذلك يكون التاريخ الضخم للحضارة الصينية أو الكلاسيكية معادل للتاريخ القزم للفرد الإنسان، أو تاريخ الحيوان، أو تاريخ شجرة أو زهرة. ففي مصائر الحضارات المتعددة التي تتبع الواحدة منها الثانية، أو تغمر هذه تلك بظلالها، أو تخمد إحداها أنفاس الأخرى، يُضغط كامل محتوى التاريخ البشري. وبالتالي فإن الحضارة هي الظاهرة الرئيسة لكل تاريخ عالم مضى أو سيأتي"[36].

٥- الحضارة ليست حرة في اختيار مسارها:

إن الحضارة لا تستطيع اختيار درب فكرها وسلوكها ولا يمكن أن تعرف مصيرها منذ البداية، باستثناء الحضارة الغربية الحديثة التي تستطيع، ولأول مرة في التاريخ، أن ترى الطريق التي اختارها لها المصير"[37]. ويقصد بذلك، كما سيأتي معنا، أن مؤشرات انهيار الحضارة الغربية في المستقبل تدل على نفسها في كل تفاصيل الحياة.

٦-علاقة الإنسان بالدولة:

أن الإنسان يفهم في الدولة الزمالة في السلاح، بغية حماية دياره، وحماية زوجته وطفله، وبغية تأمين الشعب بأكمله على مستقبله وفاعليته ونفوذه. فالدولة هي الشكل الباطني للأمة أو الشعب، إنها الشكل العضلي للأمة، أما التاريخ في مفهومه الرفيع، فهو الدولة

---

[35] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٩٢.

[36] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢١٣-٢١٤.

[37] -اشبنغلر: تدهور. ص ٣٠٢.

المُدْركة، لا كشيء مُحَرك، بل كحركة. فالمرأة حالها حال الأم، والرجل بوصفه محارباً وسياسياً يصنع التاريخ"[٣٨].

٧-فكرة التعاصر بين الحضارات:

يرى اشبنغلر أن تطبيق مبدأ التعاصر على الظواهر التاريخية يحمل معه مضموناً جديداً كل الجدة لكلمة "معاصر" التي تعني عنده، واقعتين تاريخيتين تشغلان تماماً المركزين النسبيين ذاتيهما، وذلك بالنسبة إلى كل واقعة وحضارتها، وهما لهذا يمتلكان أهميتين متساويتين متعادلتين"[٣٩]. ووفقاً لذلك اعتبر أن الإسكندرية معاصرة لبغداد العباسية، وأن بغداد العباسية معاصرة لواشنطن. ولذا فإن جميع الإبداعات العظيمة في أشكال دين أو فن أو سياسة أو حياة اجتماعية أو اقتصادية أو علوم، تظهر وتكمل نفسها وتموت في أوقات متعاصرة في كل الحضارات، أما الفرق بين تلك الحضارات المتعاصرة فيكمن في التركيب الباطني لأي من الإبداعات أو الأشكال، ففي الوقت الذي نجده ينطبق كلياً وبدقة على مماثليه من الأشكال في الحضارات الأخرى، إلا أننا لا نجد نسخة طبق الأصل تبدو واضحة، لكنها تدرك عندما نمتلك عمقاً في البصيرة، حيث نجد أن الظاهرة ذات القيمة العميقة في التاريخ لها ما يقابلها تماماً في غيرها من الحضارات"[٤٠].

٨-المصادفة في التاريخ:

يؤمن اشبنغلر بالمصادفة في التاريخ، ويرى أن اللا متوقع هو

---

[38] -اشبنغلر: تدهور. ص ١٦٥.

[39] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٢٦.

[40] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٢٧-٢٢٨.

الذي يحكم سطح التاريخ. فمثلاً -كما يقول- لم يكن أحد يتوقع هبوب عاصفة الإسلام حينما عرف "محمد" ﷺ طريقه إلى الوجــود. فبــروز الرجال، وأعمالهم، وحظوظهم أمور كلها غير قابلة للحــساب. وهــذه الحقيقة تنطبق أيضاً على الحيوان والنبات وتاريخ الأرض ومصيرها، ومصائر كل ما في الكون من كواكب وأجرام. فالإمبراطور "أغسطس" التافه صنع حقبة تاريخية كاملة، بينما الإمبراطور "تيبريوس" العظــيم مر به التاريخ مروراً كريماً، إذ أنه لم يخلف وراءه أي شيء يذكر[41].

وفي باب المصادفة أيضاً نجد أن حادثة ما تصنع حقبة؛ لأن هذه الحادثة تشير إلى منعطف ضروري وخطير في مجرى الحــضارة[42]. أما عالم المصادفة فهو عالم الواقع الذي سيتحقق ذات مرة، وهو العالم الذي نعيشه بالتطلع إليه بحنين وشوق أو قلق[43].

٩-أنكر مبدأ السببية في التاريخ:

اعتبر اشبنغلر أن مبدأ السببية يؤثر تأثيراً مميتاً في مقدرة المرء على اختبار التاريخ اختباراً أصيلاً، وخاصة عندما يكتسب مبدأ السببية شكله المتخشب في ذلك الظرف المتأخر من ظروف الحضارة، والذي هو ظرف خاص بهذا المبدأ وموقوف عليه ويمكنــه مــن أن يــستبد بصورة التاريخ ويتجبر عليها. فالنهار ليس سبباً لليل، وليس الــشباب سبباً للشيخوخة، وليست الزهرة سبباً للثمرة[44].

١٠- الحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية:

إن الحضارة -لا الدولة كما ذهب هيجل- هي وحــدة الدراســة

---

41 -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٦٩-٢٧٠.

42 -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٨٤-٢٨٥.

43 -اشبنغلر: تدهور ص ٢٧٣.

44 -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٩٠-٢٩١.

التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي كله ما كان منه وما سيكون؛ لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية ومن ثم لا تتماثل حضارتان"[45].

١١-أنكر وجود تأثير متبادل بين الحضارات:

كل حضارة مستقلة عن الحضارة الأخرى تمام الاستقلال حيث تكون منها دائرة مقفلة على نفسها ليس بينها وبين الحضارات الأخرى إلا نوافذ لا تسمح بنفاذ ما لا يلائم جوهر الحضارة الأخرى وروحها، إذ أن ما ينتقل ما يلبث أن يستحيل إلى طبيعة الحضارة اللاحقة وكل تشابه فهو ظاهري فقط، والقول بتراث واحد للإنسانية أو تصور التأثر والتأثير ليس إلا وهماً"[46].

١٢-فكرة المصير عند اشبنغلر:

يقول اشبنغلر: "أن النفس تكشف في فكرة المصير عن حنين عالمها، عن رغبتها في الارتفاع إلى النور، وعن توقها للتحليق وإنجاز مهمتها"[47]، ويقول أيضاً: "إن المصير هو الصيغة الحقيقية لوجود الظاهرة الأولية حيث تكشف فيها فكرة الصيرورة الحية فوراً عن نفسها أمام الرؤية الوجدانية"[48].

ولا يعني اشبنغلر بالمصير قوة خارجية تحدد سلوك الإنسان، وإنما المصير عنده شعور الإنسان بذاته إزاء قوة إنسانية أخرى تتحداه

---

45 -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٤٨.

46 -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٤٧.

47 -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٢٣.

48 -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٣٨.

وتجعل وجوده في خطر، حينئذ تنبثق الطاقات الكامنة فيه من اجل تأكيد الوجود، **ووفقاً لذلك لا بد أن يتوفر لفكرة المصير عاملين: وجود ذات مستقلة لها كيانها وطابعها المستقل، ثم وجود أحداث خارجية بينها وبين الذات علاقة تحد في أغلب الأحيان** فينشأ نتيجة الالتحام نوع من التفاعل يحدد سلوك الذات لسنوات، وليس كل حدث يمس المصير، فهناك أحداث كثيرة في حياة الفرد لا تمس إلا القشرة السطحية لحياته، وإنما لا بد أن ينفذ الحدث إلى المركز الباطن الذي يشكل جوهر الذات، حينئذ تكشف الروح عن جزعها إزاء ما يهدد شخصيتها، جزع مصدره الجهل بالمصير؛ لأن أخص خصائص الزمان استحالة الإعادة، وما يستحيل عوده يولد في النفس الجزع[٤٩].

١٣-التشكل الكاذب للحضارة:

يقول اشبنغلر: "يحدث أن يذعن في دوامة الصيرورة أحد العناصر لمصيره ويستسلم، بينما يصبح عنصر آخر نفسه مصيراً. فالأول يختفي مع سلسلة أمواج السطح، بينما الثاني يصنع الـ "هذا" والـ "هذا" شيء ما لا نستطيع أن نفسره أو نوضحه "بكيف ولذلك" ومع ذلك فهو ضرورة باطنية"[٥٠]. فيحدث أحياناً حينما تتلاقى حضارتان وتكون إحداهما أشد قوة ولكن الأخرى أعظم إبداعاً وأكثر عراقة أو على الأقل مساوية لها، أن تضطر المهزومة للتلاؤم ظاهرياً مع الحضارة الغالبة ما دامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخاصة، وتتشكل مظاهر هذه الحضارة في القوالب الفارغة التي فرضتها عليها الحضارة الأجنبية، ويظن الناظر إلى السطح أن

---

[49] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٤٤.

[50] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٧٠.

الحضارة المغلوبة على أمرها قد اختفت بينما هي كامنة خلف القشرة الخارجية التي فرضت عليها. ومثال ذلك: أن حضارة لها خصائصها المميزة انبثقت في منطقة شرق البحر المتوسط ولكنها ظلت مطمورة بعدما فرض الإسكندر الأكبر الحضارة الهيلينية على مصر وجنوب آسيا فانتحلت أوجه النشاط الفكري والثقافي في هذه المنطقة صورة هيلينية لمدة تقرب من ألف سنة، ولكن ظلت الحضارة الهيلينية قشرة خادعة تحجب الحقيقة الجوهرية، وقد ظهرت ردود فعل شرقية متعاقبة ضد المنحنى الهيليني التقليدي لا في المجالين الحربي والسياسي فحسب وإنما الثقافي كذلك ممثلاً في الدين، فحين أصبحت الدولة الرومانية مسيحية اتخذت هذه الحضارة مذاهب مخالفة لمذهب الكنيسة الرومانية إذ انتشر مذهبا اليعاقبة والنساطرة، ثم استجابت هذه الحضارة سريعاً للإسلام بمجرد ظهوره فانحسر نفوذ الحضارة اليونانية الرومانية. وحين سيطرت الحضارة الإسلامية على حضارة الفرس العريقة دان الفرس بمذهب التشيع مخالفين بذلك مذهب الخلافة القائمة، كما ظلوا محتفظين بلغتهم، وقد تنبأ اشبنغلر بانتفاضات في الدول الأفريقية وخلع مظاهر الحضارة الأوربية عنها بمجرد جلاء المستعمرين الأوربيين. وهنا يسمي اشبنغلر تلك الحالة التي تضطر فيها حضارة عريقة إلى الخضوع والتلاؤم الظاهري مع حضارة مسيطرة بالتشكل الكاذب للحضارة"[51].

١٤-تطور الحضارة:

يمكن إيجاز عملية التطور التي تمر بها الحضارة في رأي اشبنغلر على النحو التالي:

---

[51] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٥٤-٢٥٥.

*تولد الحضارة في اللحظة التي تـوقظ فيهـا نفـس عظيمـة الروحانية الأولية للإنسانية الأبدية الطفولة.

*ثم تعزل نفسها لتصبح شكلاً مما لا شكل له، وشيئاً فانياً ممـا هو خالد وغير محدود.

*ثم تزدهر في تربة رقعة من الأرض شأنها فـي ذلـك شـأن النبات.

*تموت الحضارة عندما تحقق النفس التي أيقظتها كامل إمكاناتها في شكل شعوب ولغات ومذاهب وفنون ودول وعلوم، وتعـود إلـى نفسها الأولية.

*إن الوجود الحي للحضارة يجعلها تصارع للحفاظ على ذاتهـا وفكرتها من قوى الفوضى التي تحيط بها داخلياً وخارجياً.

*عندما تحقق الحضارة ذاتها وتكتمل الفكرة وتحـول إمكاناتهـا الباطنية إلى إنجازات واقعية في ظاهرهـا، تتـصلب فجـأة وتفـسد، وتتسمم، وتجمد دماؤها، وتخور قواها، فتتحول إلى مدنيـة، فيكـون حالها كحال غابة عملاقة مهترئه تشرئب أغـصانها النخـرة الباليـة بأعناقها نحو السماء لمئات أو آلاف من السنين[٥٢].

ومثال ذلك:

عندما انتفضت الحـضارة الكلاسـيكية عملاقـاً فـي العـصر الإمبراطوري، لم تكن ثابتة ولا قوية ولا مكتملة، فكان مظهرها زائف ومزور ومخادع، ثم سلبت من الحضارة العربية الشابة فـي الـشرق الهواء والنور.

*إن هذا الاكتمال الظاهري هو ، **الخاتمة (النهاية / المـصير)**،

---

[52] -شبنجلر: تدهور. ص ٢١٧.

الذي ينتظر كل حضارة حية، وهــو مغــزى جميــع الانحطاطــات التاريخية، بما فيه الانحطاط الكلاسيكي المعروف، وبما فيه الانحطاط الأكبر –الذي توقعه اشبنغلر– والذي كما يقول سيشغل القرون الأولى من الدورة الألفية القادمة من الأعوام (أي القرن ٢١ م) والذي نــرى الآن (في عهد اشبنغلر سنة ١٩١٧م أي بعد الحرب العالمية الأولــى) طلائعه ونحس به حولنا، ويعني به "انحطاط الغرب".

"إن كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها التي يمر بهــا الفــرد الإنسان، فلكل حضارة **طفولتها وشبابها ورجولتها وشيخوختها**"[53].

فكما أن كل فرد منا في اللحظة الحاسمة التي يبدأ فيها. بمعرفــة ذاته على أنه "أنا"، فإن الحياة الباطنة تستيقظ عندئذ تمامــاً بالطريقــة ذاتها التي استيقظت وفقها الحياة الباطنية للحــضارة، إن مكانــاً وإن كيفاً[54]". فالحضارة تبدأ بشكل وعي يتلمس ما حوله، وفي الوقت نفــسه يُنضج ذاته ويُعد نفسه للتعبير عن وجوده، وكلما اقتربت الحضارة من ذروة كينونتها يزداد تطورها فتزداد ثقتها بقوتها، وبالتالي تزداد ملامح هذه الحضارة نقاء وصفاء[55]".

وفيما يلي توضيح مبسط لعملية التطور السابقة:

---

[53] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢١٨.

[54] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢٢٤.

[55] -اشبنغلر: تدهور. ص ٢١٩.

تستيقظ النفس العظيمة ← تولد الحضارة ← تجد لنفسها شكلاً ← تنمو في بيئة مناسبة وفي مكان مناسب ← يزداد السكان فيتعاظم إنتاجهم ← تموت الحضارة فتعود إلى نفسها الأولية ← عندما تحقق الحضارة ذاتها بشكل شعوب ولغات وفنون وعلوم تتخشب وتتحول إلى مدنية ← الانحلال والفناء.

١٥-مرحلة المدنية (تدهور الحضارة)[٥٦]:

يعتبر "اشبنغلر" المدنية المرحلة التي تبدأ فيها عملية التدهور حيث تصل الأشياء إلى قمة التطور المترف فتنقلب إلى صورة غير التي كانت عليها. فالوجود يتخشب لانعدام الحيوية فيه. ويصبح القول الأول للفخامة المادية والوفرة العددية، وتنحل الضمائر، وتقاس العظمة بالمال والنفوذ على عكس السابق حيث كانت الأخلاق والعزائم هي المقياس الأول.

وتنشأ المدن العالمية العظمى، ولكن سكانها لا يمثلون أمة وإنما يمثلون ركام من البشر تربطهم مصالح مادية لا تمت إلى الوجدان أو الضمير بصلة. أما المنازل فسكانها جمعتهم الصدفة ولا توحدهم رابطة الدم أو الشعور القومي بل المصلحة الاقتصادية، حتى أن الشخص إذا انتقل إلى مدينة أخرى تصبح وطنه ولا يهتم برابطة الدم، وسكان المدن لا يستطيعون أن يعيشوا في مكان آخر غير تلك الأرض

[٥٦] -استحسنت تلخيص هذه الفكرة مع بعض التصرف أحياناً من العرض الموجز الذي استهل به أحمد الشيباني كتاب اشبنغلر الذي قام بترجمته، وذلك لنجاحه في تقديم فكرة اشبنغلر عن المدنية بأسلوب سهل ومبسط. انظر العرض المذكور، ص ١٥-١٧.

الصناعية؛ لأنهم ينظرون للقرى كشيء غريب وأجنبي.

والإنسان في المدينة يربط كل شيء بالأسباب ولا يفهم التجربة الحية و اللاحسية، إنه فاقد لمميزات البداية مثل الدم والقومية والتقاليد، وهذا جعل منه عقيماً يتجه نحو الموت حيث فقد الإحساس والرغبة في الحياة، كما فقد الخوف من الموت، ولم يعد يشعر بمبرر وجوده واستمراره في الحياة.

ويرى اشبنغلر أن العقلانية لا يمكن لها أن تدفع الإنسان أو الأمة إلى بناء حضارة، فالعقلانية مذهب يؤمن بالمحسوس المُدرك ولذلك يحول الإنسان إلى كائن يتمسك بالحاضر ويشد بذاته إلى كل ما هو آت ويطمع في تحقيق الربح الفوري، لهذا فإن مثل هذا الإنسان هو فريسة دائمة للانتهازية، وهو يستغرب التضحية ويستهجن العطاء، ويسخر من عمل لا يحقق ربحاً آنياً وفورياً، ومثل هذا الإنسان لا يمكن أن يكون لبنة في صرح الحضارة، كما وأن العصر الذي يعيش فيه ويدين بمذهبه، لا يمكن أن يكون عصر انبعاث وحضارة. بل إن هذه المدينة عاطلة عن العظمة الحقيقية، عقيمة لا مجال فيها للبناء الأصيل، وهي تحاول أبداً ودوماً ورغبة منها في الصمود أمام شعورها بالنقص أن تُعَزِّف نفسها بعيش حسي مترف يخنق صوت الوجدان داخل الإنسان، ولكن لما كانت الأحاسيس لا تشبع بل تتهك، لذلك تصاب المدنية بالسأم والملل ويفتش أهلوها عن مهرج لا صديق، وعن نديم لا رفيق، وبهذا تنقلب موازين القيم وتختل إلى درجة يجعل أهلوها في كثير من اللحظات يحسون بعقم الحياة وبانعدام أي حافز أو مبرر لها.

إن اشبنغلر يؤمن إيماناً جازماً بأن الجنس البشري على ظهر هذا

الكوكب مقبل على الفناء بكل تأكيد في وقــت قريــب، وأن تــدهور الحضارة الغربية سيجر معــه حتمــاً تــدهور الحــضارة الإنــسانية بكاملها[٥٧].

ويضيف لشبنغلر، أن تلازم عصر تنتشر فيه المذاهب اللادينيــة مع التوسع الاستعماري العــالمي يعنــي أن ذلــك عــصر تــدهور واضمحلال، ويستحيل تجديد شباب هذه الحضارة كما يتعذر استرجاع شباب الكائنات العضوية، ولا يمكن أن نفعل شيئاً إذا كنا قد ولدنا فــي أول شتاء هذه الحضارة، وهذه ليست أزمة طارئة ولكنهــا مأســاة لا يمكن تجنبها فتكون النتيجة أنه لا مفر من هذا المصير[٥٨].

[57] – يتساءل الأستاذ أحمد الشيباني، هل تؤكد أسلحة الدمار الشامل مخاوف اشبنغلر ؟. ص ١٧. وأنا بدوري أتساءل كذلك، هل الانهيار الأخلاقي الغربي على المستويين الخارجي والداخلي سيقود إلى النهاية التي توقعها اشبنغلر، أم سيؤدي إلى انبثاق حضارة جديدة كما يتفاءل هو بذلك ..؟

[58] –صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٥٦.

٤-البعد الحضاري الديني لدى توينبي (١٨٨٩-١٩٧٤م):

معلومة

نشر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي ستة مجلدات من كتابه "دراسة التاريخ" المكون من عشرة أجزاء، وقد نشر منهم ستة أجزاء في الفترة من ١٩٣٤م، ثم نشر الأربعة الباقية ابتداء من ١٩٥٤-١٩٦٣م. (عن، تيماشيف، نيقولا: نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها. ترجمة: محمود عودة (وآخرون). القاهرة،ط٧، ١٩٨٧. ص ٤٠٤. وقد نشر له الأستاذ "سومر فيل" مختصراً في كتاب واحد سماه "مختصر دراسة التاريخ" بسّط فيه جميع آراء المؤلف.

وتعد نظرية "توينبي" من أهم نظريات فلسفة التاريخ، فهو مؤرخ معاصر عاش وشاهد مشكلاتنا العالمية الأمر الذي يجعل آرائه أكثر حيوية وأهمية من فلاسفة أو مؤرخين عاشوا في أزمنة خلت، كذلك حرص توينبي على أن يكون مؤرخاً أكثر منه فيلسوفاً فهو من حيث دسامة المادة التاريخية لا يكاد يناظره مؤرخ آخر[٥٩].

مميزات نظرية توينبي:

١-قيّم جميع الحضارات بموضوعية ودون تفضيل للحضارة الغربية، بل أنكر القول بوحدة الحضارات الذي قصد به الغربيون –

[59] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٥٩-٢٦٠.

كما يقول-جعل الحضارة الغربية أعظمها.

٢-انتقد التقسيم الثلاثي للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث من قبل مؤرخي الغرب؛ لأن هذا التقسيم لا يعني شيئاً بالنسبة للحضارات الأخرى.

٣-ينتقد توينبي أنانية بعض مؤرخي الغرب التي تعتبر الجنس النوردي ذا البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الزرقاء أسمى الأجناس.

٤-أنصف العرب والحضارة العربية ومشكلة فلسطين. وقال أن الحضارة اليهودية متحجرة، وأن تطور اليهود كان بسبب تحدي الشتات وليس بالرغم من الشتات، ومن ثم اعتبر أن اجتماع اليهود في دولة واحدة يعني زوال عامل التحدي عندهم وانتقاله إلى العرب، فوجود اليهود يستثيرهم ويولد عندهم تحدي مصيري وهو ما سيؤدي إلى تكرار شتات اليهود مرة أخرى.

معلومة

قدم توينبي مقترحاً لتقسيم التاريخ يخص الحضارة الغربية، وهو كالتالي:

-غربي أول (العصور المظلمة) ٦٧٥-١٠٧٥م.

-غربي ثاني (العصور الوسطى) ١٠٧٥-١٤٧٥م.

-غربي ثالث(العصور الحديثة) ١٤٧٥-١٨٧٥م.

-غربي رابع (العصور ما بعد الحديثة ١٨٧٥-؟م.

(توينبي، ص ٦٥).

٥-رفض توينبي الحتمية التشاؤمية اللازمة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى اشبنغلر؛ لأن التاريخ لا يمكن أن يدور برتابة

كدوران العجلة"[60].

٦-انتقد توينبي القول "بوحدة الحضارة" ويعتبر أن قصد المؤرخين الغربيين من ذلك هو القول أن الحضارة النموذجية هي الحضارة الغربية وحسب وما دونها لا قيمة له، متأثرين بذلك بمحيطهم الاجتماعي ومظهر الحضارة الغربية الخداع والتطور العلمي والتكنولوجي في العصر الحديث. وهذا النجاح قادهم إلى افتراض نهر واحد للحضارة وهو الغرب، أما دافعهم الرئيس في ذلك فيتمثل في ثلاثة أوهام هي:

(أ): وهم حب الذات، وهم في ذلك مثلهم مثل اليهود الذين لم يعتبروا أنفسهم شعباً مختاراً وحسب، لكنهم الشعب المختار الأوحد بين الشعوب، وهو ما سبب لهم معاناة كثيرة.

(ب): وهم الشرق الراكد، فهم يعتقدون أن الشرق ركد ومات ولن يعرف التطور ثانية.

(ج): وهم التقدم كحركة تلتزم خطاً مستقيماً ذو صيغة واحدة"[61].

نظرية التحدي والاستجابة:

من خلال دراسة توينبي للكثير من تجارب الحضارات في العالم، وصل إلى نظريته التي أطلق عليها اسم "التحدي والاستجابة"، معتمداً على العديد من العوامل التي تحقق فكرته، ومن هذه العوامل:

---

[60] -انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٦٠-٢٦٥. وما يخص اليهود انظر كذلك: توينبي، آرنولد: مختصر التاريخ، ج١، . ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، ط١، ١٩٦٠. ص ٢٢٥-٢٣٢.

[61] -توينبي: مختصر. ص ٥٩-٦٥.

أولاً: أثر البيئة في تطور الحضارة:

إذا كان مفهوم التحدي والاستجابة يعني وجود مشكلة تتحدى مسيرة تطور الإنسان أو بقائه، فإنه يستجيب لها ويجد لنفسه بيئة مناسبة للتطور، ولتوضيح ذلك ضرب توينبي أمثلة من حضارات عديدة، منها الحضارة المصرية:

فقد استجاب المصريون لتحدي الجفاف بتغيير موطنهم وطريقة معيشتهم، فتحولوا من جامعي طعام وصيادين إلى زُرّاع، وذلك عندما استحالت المراعي المشرفة على وادي النيل إلى الصحراء الليبية، فخاض المصريون بجرأة مستنقعات الأدغال الموجودة في الوادي والتي لم يسبق لأحد التوغل فيها، فحولوها بفعل عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر. وبذلك نجحت المغامرة فخضعت أعمال الإنسان لإرادته الطبيعية، وبالتالي اختفت مستنقعات الأدغال وحلت محلها مجموعة منسقة من القنوات والمدرجات والحقول. وهكذا استصلحوا الأرض ثم بدؤوا في المغامرة الكبرى وهي بناء الحضارة[٦٢]. وبذلك استجاب المصريون للظروف القاسية لكنهم تحدوها وتغلبوا عليها. وهذا لا يترك مجالاً للشك أنهم لو تعرضوا للظروف نفسها في المستقبل فسيستجيبون لها محدثين انقلاباً بديلاً في حياتهم[٦٣]. وهنا أعطى توينبي لنظريته بعداً فلسفياً، فهو لا يكتف باستحضار الماضي ويحلله فحسب، لكنه يربطه بتوقعات وافتراضات مستقبلية.

ثانياً: أثر الدين في تطور الحضارة:

يعتقد توينبي أن وراء تطور وبقاء أي حضارة، دين عالمي،

---

[62] -توينبي: مختصر. ص ١١٦-١١٧.

[63] -توينبي: مختصر. ص ١٢٠.

ويدلل على ذلك في أنه من بين الحضارات الإحدى والعشرين التي قام بدراستها، لم يجد منها سوى خمس حضارات استمرت حتى اليوم، والسبب الرئيس في ذلك هو الدين، وهذه الحضارات هي:

الحضارة المسيحية الغربية (أوربا وأمريكا) – الحضارة المسيحية الشرقية (الأرثوذكسية) (روسيا ودول البلقان) – الحضارة الإسلامية – الحضارة الهندية (الهندوسية وبوذية الهينايانا) – حضارية الشرق الأقصى (أو بوذية الماهايانا).

ثالثاً: حافز الضربات:

إن الضربات المفاجئة وغير المتوقعة تصبح حافزاً كبيراً نحو التطور، فمثلاً عندما كان العثمانيون على وشك استكمال غزوهم مقر المسيحية الأرثوذكسية الرئيس في شبه جزيرة البلقان تعرضوا لهزيمة نكراء أفقدتهم صوابهم وتعرضوا للانهيار العام، ومع ذلك لم يمض نصف قرن بعد ذلك حتى تمكن محمد الفاتح من إسقاط القسطنطينية ليبدأ عصراً جديداً من التطور[٦٤].

رابعاً: حافز الضغط:

فقد أدى ضغط قبائل النوبة على الحضارة المصرية إلى قيام المصريين بتوحيد مصر العليا ومصر السفلى في الربع الأخير من الألف الرابع ق.م، واستمر التطور حتى وصلوا إلى مرحلة الإمبراطورية. وعندما خف ضغط القبائل النوبية، ظهر تحدي جديد عبارة عن ضغط حدودي آخر يتمثل في الهجمات المستمرة للقبائل الليبية وهو ما حفزهم على مزيد من الاستجابة الناجحة وتأمين الحدود، وهذا جعل الإقليم المعرض للتهديد والضغط الحدودي بصورة

---

[64] -توينبي: مختصر. ص ١٨٢-١٨٣.

مستمرة يصبح الإقليم صاحب النفوذ والغلبة[٦٥].

وفي جهة أخرى أدى ضغط الأتراك العثمانيين على العالم الغربي من خلال حرب المائة عام بين العثمانيين والمجر والتي انتهت في معركة "وهاتش" عام ١٥١٦م باستئصال مملكة المجر، أدى ذلك إلى استجابة مجرية تبعها تحدي مصيري تُرجم بوحدة "المجر" و "بوهيميا" و "النمسا" استمرت قرابة أربعمائة سنة ولم ينته إلا في عام ١٩١٨م، وهو العام نفسه الذي شهد انهيار الدولة العثمانية بفعل ظروف جديدة[٦٦]. وفي ضوء ذلك استنتج توينبي أن التأثير العادي للضربات والضغوط من الخارج هو عامل استثارة لا عامل تدمير[٦٧].

خامساً: حافز النُقم:

أورد توينبي أمثلة كثيرة على ذلك، من هذه الأمثلة **اليهود:**

فقد أدى تشتت اليهود في كل مكان إلى شعورهم بالكراهية والانتقام فاستجابوا لظروف الشتات، لكنهم واجهوه بتحدي تمثل بإثبات أنفسهم كقوة في المجتمع الذي يعيشون فيه، فسيطروا على ميدان التجارة والمال التي جعلت منهم حاجة اقتصادية في البلدان التي يعيشون فيه، وبذلك فإن تحدي الشتات أوجد عندهم استجابة ناجحة[٦٨].

ولكن ماذا يحدث إذا وجد تحدي زائد عن الحد ؟، وهل القانون هو أن "أعظم التحديات حفزاً يوجد في متوسط بين التفريط والإفراط في الشدة" ؟، وهل كل تحد يستثير استجابة ناجحة ؟ :

إن علاقة الاستجابة بالتحدي تتخذ إحدى صور ثلاث هي:

---

[65] -توينبي: مختصر. ص ١٨٧-١٨٨.

[66] -توينبي: مختصر. ص ١٩٨.

[67] -توينبي: مختصر. ص ٤٥٧.

[68] -توينبي: مختصر. ص ٢٢٥-٢٣٢.

(أ): أن قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجزاً تماماً عن استجابة ناجحة.

(ب): أن يحطم التحدي البالغ الشدة روح الطرف الآخر.

(ج): أن يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة، وهذه هي وحدها الاستجابة الناجحة. ولكن ليس التحدي الأمثل هو الذي يستثير استجابة ناجحة واحدة، وإنما يتبع الاستجابة الناجحة سلسلة من التحديات تكون بمثابة القوة الدافعة التي توجد تنافساً قوياً من أجل أن يرجح كل طرف كفة ميزانه ولا يكتفي بالوقوف بها عند حالة التوازن، مثال ذلك:

إن تحدي الحضارة الهيلينية للمجتمع السوري بغزو الإسكندر ثم سيطرة الرومان أدى إلى استثارة المجتمع السوري بحيث أجبر الدولة الرومانية المسيطرة على اعتناق المسيحية عندما أصبح ذلك المجتمع مهداً لها، وحينما اعتنقتها خالفها فاتبعت المذهب النسطوري، وهذا دفع الرومان لاضطهاد أتباعه، ومع ذلك لم يستسلم المجتمع السوري بل دفعه ذلك التحدي لتحقيق استجابة ناجحة بعد ألف عام تقريباً من غزو الإسكندر، وذلك في ظهور الإسلام وتقبل النساطرة في الشام له وكذلك رحب به اليعاقبة في مصر[٦٩].

إذن كيف ترتقي الحضارات صوب تقرير مصيرها ؟

يذكر توينبي أن تاريخ التطور التكنولوجي أخفق كما فشل تاريخ التوسع الجغرافي في تزويدنا بقاعدة تفسر ارتقاء الحضارات، ومع ذلك يبدو أن القاعدة التي تحكم هذا الارتقاء هي "**التبسيط المتتالي**".

---

[69] -انظر صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٦٩-٢٧٠م. وانظر توينبي: مختصر. ص ٢٣٣-٢٧١.

فمثلاً حل المحرك ذو الاحتراق الداخلي السهل المنال محل المحرك التجاري الضخم الذي يحرك عربات القطار، كما حل اللاسلكي محل التلغراف السلكي، وحلت الحروف اللاتينية الأنيقة السهلة محل حروف الكتابة المعقدة. كما انعكست نزعة التبسيط على اللغة، وعلم الفلك، كما انعكس كذلك حتى على الملابس حين تحول المرء من البدلة المعقدة طراز عصر الملكة اليزابث الأولى، إلى طراز الملابس السهلة في الوقت الحاضر[٧٠].

وخلاصة القول أن الصعوبة والضخامة والتعقيد استبدلت بزيادة الكفاية العملية، وأن الأمر شكل ربحاً ولم يؤد إلى خسارة[٧١].

وبالتالي يمكن القول بأن سلسلة من الاستجابات الناجحة لتحديات متعاقبة تُفسر بأنها مظهر للارتقاء، على شرط أن يتجه الفعل -كلما تتابعت السلسلة- إلى التحول من ميدان البيئة الخارجية، مادية كانت أم بشرية، إلى الميدان الداخلي للشخصية النامية، والتي يقصد بها **الحضارة**. وطالما تنمو الحضارة ويستمر ارتقاؤها، يقود ذلك إلى تناقص الركون إلى التحديات التي تولدها القوى الخارجية، والتي تتطلب استجابات على ميدان معركة خارجي، وأن يتزايد ركونها إلى التحديات التي تتيحها لذاتها هي نفسها في ميدان المعركة الداخلي. **ويعني الارتقاء: أن الشخصية النامية أو الحضارة تنزع لأن تصبح بيئتها الخاصة فضلاً عن صيرورتها، المتحدي لنفسها وميدان عملها ذاتها. وبكلمات أخرى فإن قاعدة الارتقاء هي التقدم تجاه**

[70] -توينبي: مختصر. ص ٣٣١.

[71] -توينبي: مختصر. ص ٣٣١.

تقرير المصير[72].

الإبــــداع وتحــــلل الحضــــارات:

على أن الأمر لا يبقى على حاله، ولكن تبدأ هــذه الحــضارات بالتحلل. فالأفراد الذين يُدفعون إلى السير فــي عمليــة التقــدم فــي المجتمعات التي ينتسبون إليها، هم أعظم من كونهم رجالاً عاديين، فإن في وسعهم إنجاز ما يظنه غيرهم معجزات، مثل هؤلاء الأفراد عباقرة بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي فحسب[73]. ولذا يكون لزامــاً على الشخصية المبدعة أن تشكل رفاقها البشر بتحويلهم إلى مبــدعين عن طريق إعادة تشكيلهم على صورتها. ولكن إذا ما حصل قــصور ذاتي لديهم فسيترتب عليه مشكلة:

فإذا كانت العبقرية المبدعة تفشل في أن تحــدث فــي محيطهــا التغير الذي حققته هي في نفسها، فإن عملها الإبداعي ينقلــب عليهــا؛ لأنها تكون قد أحدثت بنفسها خللاً في ميدان فعلها. وإذا ما فقدت القدرة على الفعل، ستفقد الإرادة على العيش حتى ولو لم يضطهدها رفاقهــا السابقون اضطهاداً يفضي إلى نهايتها[74].

ومن الناحية الأخرى نجد أنه إذا وفق العبقري فعلاً في التغلــب على القصور الذاتي أو الخصومة الحادة لرفاقه السابقين وانتصر فــي تحويل وسطه الاجتماعي إلى نظام جديد ينسجم مع التشكل الذاتي له، فإنه يجعل الحياة بذلك لا تحتمل للرجال وللنساء العاديين. اللهم إلا إن نجحوا في تكييف أنفسهم بدورهم وفقاً للوسط الاجتماعي الجديد الــذي

72 -توينبي: مختصر. ص ٣٤٧-٣٤٨.

73 -توينبي: مختصر. ص ٣٥٤.

74 -توينبي: مختصر. ص ٣٥٦.

فرضته عليهم إرادة العبقري القوية المبدعة[٧٥].

إذن كيف يمكن استعادة التوازن الاجتماعي إذا أدت قوة دفع العبقرية إلى اختلال النظام ؟.

يكمُن أبسط الحلول في قيام كل عضو في المجتمع –مستقلاً عن الآخر– بإحداث دفعات منتظمة في قوتها وفي اتجاهها على السواء. وعندئذ يحدث الارتقاء من غير حدوث شبهة ضغط أو احتكاك. وقلما يقال بعدم حدوث استجابات حقيقية كاملة تماماً تلبية لنداء عبقريات مبدعة[٧٦].

وفي الحقيقة يبدو أن التفرد الأصيل لأي فعل إبداعي ونزعته الفردية لا يجابهها فعل معاكس اللهم إلا إلى مدى ضئيل يتمثل في الاتجاه نحو التجانس الذي يبرز من خلال الحقيقة القائلة بأن كل فرد هو مبدع احتمالي، وأن جميع هؤلاء الأفراد يعيشون في نفس المجال. ومن ثم يجد المبدع نفسه عند ظهوره محاطاً بجمهرة خامدة عاطلة من الإبداع يجرفه تيارها حتى ولو كان سعيد الحظ بالاستمتاع برفقة نفوس تتآلف معه[٧٧].

أما الحقيقة القائلة بأن استطالة الحضارة هي من نتاج أفراد مبدعين أو أقليات مبدعة، فتحمل بين ثناياها مشكلة تتمثل في أن الأغلبية العاطلة عن الإبداع ستترك متخلفة، اللهم إلا إذا استطاع الرواد تدبير تقدمهم المثير[٧٨].

ومع ذلك نجد أن بعض المبدعين نجحوا بالفعل في تعزيز

[75] –توينبي: مختصر. ص ٣٥٧.
[76] –توينبي: مختصر. ص ٣٥٧.
[77] –توينبي: مختصر. ص ٣٥٨.
[78] –توينبي:مختصر. ص ٣٥٩.

انتصارهم الفردي وحمايته من التحول إلى هزيمة اجتماعيــة، وذلــك بالتغلب على عادة الكسل والتراخي بداخلهم، ثم في الوسط الاجتماعي ذاته وذلك بالآتي:

أولاً: بذل جهد مضاعف يقوم به بعض الناس لابتكــار اختــراع جديد.

ثانياً: بذل جهد آخر يبذله بقيتهم لتطبيقه وتكييف أنفــسهم وفقــاً له[79].

ولكي نفهم ما ذكره توينبي حول الإبــداع وتحلــل الحــضارات سنقوم بتلخيصه في نقاط على النحو التالي:

*هناك عباقرة يدفعون نحو التطور.

*يجب عليهم إعادة تشكيل المجتمع ليتخذوا طريق الإبداع.

*فشل المبدع في تغيير محيطه ينقلب عليه بسبب عــدم قدرتــه على الفعل فتنشأ خصومة بينه وبين زملائه المبدعين.

*أما إذا نجح في التغلب على حالة القصور الذاتي لديــه وفــي اقتصاص الخصومة مع زملائه وانتصر في تحويل وسطه الاجتماعي إلى نظام جديد ينسجم مع التشكل الذاتي له، فإن المحيطين به يشعرون بتحكمه بهم وفقاً لطبيعته، فيصبح ذلك مثار قلق وانزعاج لهــم إلا إذا نجحوا في تكييف أنفسهم عليه.

*وفي حالة اختلال التوازن الاجتماعي، فإنــه لا منــاص مــن اللجوء إلى العمل الفردي فيحدث الارتقاء دون ضغط أو احتكاك. مــع التسليم بأن حالات عدم الاستجابة لنداء عبقريات مبدعــة هــي قليلــة الحدوث.

---

[79] -توينبي: مختصر. ص ٣٦٠.

*إن المشكلة الكبرى تتمثل في أن المبدع عند ظهوره يجد نفسه محاطاً بجمهرة خامدة عاطلة عن الإبداع، فإن لم ينجح بالتغلب فإن تيارها يجرفه إليهم.

*نجح بعض المبدعين في تعزيز انتصارهم الفردي وحمايته من التحول إلى هزيمة اجتماعية، وذلك من خلال تغيير السلبيات الكامنة بداخله مثل الكسل والتراخي، ثم تغيير الوسط الاجتماعي المحيط به من خلال التآلف والانسجام الهادئ معه.

وهذا يعني -كما فهمناه- أن المبدع إذا لم يجد حماية له ورعاية تتبناه فإنه قد يتحول إلى عنصر خامل يصارع هنا وهناك، حتى وإن نجح في تحقيق تقدماً ذاتياً فإن قدرته على مضاعفة الإبداع تنكمش نتيجة لمشكلة الضغط والاحتكاك. وهو ما يشير إلى الاتجاه نحو تحلل الفرد أو الدولة أو الحضارة قبل انهيارها، لأن الاستجابة للتحدي الجديد لا تجد مناخاً ملائماً للنمو.

<u>انهيار الحضارة وعوامل سقوطها عند توينبي:</u>

طالما أن ملامح التحلل قد حصلت فإن الانهيار آت لا محالة، ويبدو أن مشكلة انهيار الحضارات أشد وضوحاً من مشكلة ارتقائها، فهي تتماثل في وضوحها مع تحدي تكوينها بل وتشترك مع البداية الأولى في أمور عديدة. ولذا سيأتي معنا رأي توينبي القائل بأن الحضارة لا تنهار بسبب غزو خارجي، وأن الانهيار يبدأ من الداخل قبل أن يصل إليها الغزاة. **فيا ترى كيف يتصور توينبي انهيار الحضارة، وما هي عوامل هذا الانهيار ؟.**

يرى توينبي أن العامل الرئيس في انهيار الحضارة هو فقدان

الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة فيها، تلك جعلت البروليتاريا (تعني عند توينبي عامة الشعب في مقابل الأقلية الحاكمة) تعجب بها أشد الإعجاب، ولكن حين تعجز الأقلية المسيطرة عن الاحتفاظ بمركز من الإعجاب والاحترام لم تعد جديرة به، فإن هذه الأقلية تلجأ إلى استخدام العنف والاضطهاد وهذا يوصل المجتمع إلى حالة انهيار فينقسم إلى:

أ-أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الإبداع وأصبحت تحكم بالقهر.

ب-بروليتاريا داخلية ذليلة ولكنها عنيدة تتحين الفرصة للثورة.

ج-بروليتاريا خارجية وراء الحدود انشقت عن المجتمع، تقاوم بعنف الاندماج فيه وتتحين الفرص للغزو.

ووفقاً لذلك فإن طبيعة انهيار الحضارات تبدأ بعامل الانهيار الداخلي المتمثل بالمجتمع المنقسم والمتحلل. والذي قاده إلى ذلك أسباب ثلاثة هي:

(أ): قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية الحاكمة.

(ب): عزوف الأغلبية المتمثلة بالمجتمع عن محاكاة الأقلية المسيطرة (الحاكمة) بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية، وبالتالي فقدت مبررات الاقتداء بها.

(ج): فقدان الوحدة الاجتماعية بصفة عامة نتيجة لما تقدم من حالات الانقسام والانشقاق[80].

ويبدو في ضوء ذلك أن المجتمع (حكام ومحكومين) هو الذي يجلب على نفسه عوامل الانهيار، بل إن وجود التناقض بين ما يؤمن

[80] -توينبي: مختصر. ص ٤٠٩-٤١٣.

به وما يمارسه هو من عوامل التعجيل بالانهيار، وضرب توينبي أمثلة عديدة على ذلك، من بينها العالم الإسلامي الذي -كما يقول- أصبح للاتجاه الغربي اليد الطولى قبل أن تلوح في الأفق نُذُر أية دولة *إسلامية عالمية. فالدول الإسلامية تبذل جهوداً كبيرة لتحقيق إرضاء* الغرب من خلال القيام بعلاقات سلبية سيئة مع الأمم الغربية. ومن ثم استنتج توينبي أن أقصى ما يلحقه عدو أجنبي لا يعدو كونه توجيه ضربة قاضية إلى مجتمع ينتحر ويلفظ أنفاسه الأخيرة[81]، أما التأثير العادي للضربات والضغوط الخارجية على مجتمع ما، فهي عامل استثارة ونهضة لا عامل تراجع وتدمير[82]. فقد أدت هجمات الإسكندنافيين والمجريين خلال القرن التاسع الميلادي إلى استثارة المجتمع الغربي، فنتج عن ذلك قيام مملكتي انجلترا وفرنسا، وقيام السكسونيين بإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية المقدسة[83].

كما يرى توينبي أسباباً أخرى لانهيار الحضارة تتمثل في الآتي:

١-جمود المبدع:

لقد أدى الإبداع فيما مضى إلى ارتقاء الحضارات وتطورها، وبالتالي إعجاب البروليتاريا (عامة الناس) بالأقلية المسيطرة إلى درجة رفعها إلى مكانة عظيمة. ثم تأتي مرحلة لا يستطيع فيها المبدع (الأقلية الحاكمة أوالمسيطرة) على الاستمرار في ذلك الإبداع، ومن ثم يبدأ بمقاومة ظهور أي مبدع جديد من الجيل التالي أو الاكتفاء بما هو فيه. لذا يفتتن الجيل القديم بما كان سر تقدمه المادي أو انتصاره

---

[81] -توينبي: مختصر. ص ٤٥٤-٤٥٥.

[82] -توينبي: مختصر. ص ٤٥٧.

[83] -توينبي: مختصر. ص ٤٥٦.

الحربي افتتاناً يؤدي به إلى الجمود عنده وعدم تطويره مما قد يؤدي إلى تفوق خصمه عليه، ومثال ذلك أن المماليك في مصر بعد أن هزموا الصليبيين وأسروا "لويس التاسع"، وانتصروا على التتار، خلدوا إلى الأسلوب الحربي نفسه القائم على الفروسية الذي مكنهم من الانتصار دون أن يبتكروا أساليب أو يطوروا تكنولوجيا جديدة، مما أدى إلى فشل تكتيكهم الحربي أمام المدافع التي نصبها "نابليون"، وهكذا فإن آفة الإبداع في مجال التكنولوجيا تسير على النحو التالي:

اختراع ← انتصار ← جمود ← نكبة أو هزيمة.

٢-الحرب نزعة انتحارية، والتوسع الخارجي مظهر تدهور وانحلال: عندما تتفاقم المشكلات الداخلية ويزداد الصراع حدة نتيجة لتوقف الإبداع وفشل الأقلية المسيطرة في تقديم جديد للجماهير، لا تجد هذه الأقلية حلاً لمشكلاتها الداخلية مع البروليتاريا الناقمة وصراعها الخارجي مع البروليتاريا المتربصة غير التوسع نحو الخارج والاتجاه إلى إقامة الإمبراطوريات، وهذا دليل على أن الدول العالمية تقوم بعد انهيار الحضارة ونتيجة لها وليس قبلها. وهذا يدل على الآتي:

(أ):التوسع الحربي الخارجي دليل على تدهور داخلي.

(ب):قيام الإمبراطوريات بهدف تسكين سخط الجماهير ونقمتها.

(ج):النزعة الحربية تعبر عن نزعة التدمير الناتجة عن الشعور بالفشل.

(د):إخفاق النفس البشرية في الارتفاع إلى المستوى الإنساني اللائق بالإنسان.

(هـ):تردي النفس إلى حياة بدائية ونزعة بربرية.

(و):أثبت التاريخ أن الدول التي قامت على أساس حربي كان مآلها إلى التدهور والفناء مثل: اسبرطة، مملكة آشور، التتار.

٣- التقدم المادي كمسلك خداع لاستجابة ناجحة:

ليس التوسع الحربي هو وحده المظهر الخادع للتقدم والارتقاء وإنما تشترك معه سيطرة الإنسان على البيئة المادية في شكل تحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادي، فالأسلوب التكنولوجي آلي تطبيقي، وليس من الضروري أن يصاحب الإبداع الروحي والفكري وجوداً وعدماً، فالارتقاء الحقيقي للحضارة إنما يتمثل في الارتقاء الروحي.

ولكن كيف يواجه مجتمع التحدي المتمثل في سعي دولة مجاورة إلى تكوين إمبراطورية على حساب أراضيها ؟ وكيف تواجه الضغط من حضارة متفوقة عليها مادياً وتكنولوجياً ؟

من الملاحظ من الناحية النفسية أن ليس أمام النفس التي تصطدم بالواقع صدمة عنيفة تفقدها تكاملها وتعرضها للانهيار النفسي إلا أن تواجه أحد موقفين، وكلما كانت الصدمة أعنف كان الاستقطاب اشد بين الطرفين: **الموقف الأول:** مرحلة سلبية تتلخص في الانفصال عن الواقع والانسلاخ عنه لتعيش النفس في ذكريات ماضية سعيدة تعوض ألم الواقع. **الموقف الثاني:** مرحلة إيجابية تتلخص في الاندفاع مع التيار في محاولة التغلب عليه.

هكذا تنهار الحضارات لا بفعل غزو خارجي وإنما بسبب الإخفاق في الاستجابة السليمة للتحدي القائم، سواء أكان هذا الإخفاق متجسداً في صورة المُخلّص الشاهر سيفه من أجل الغزو الخارجي، أو

المُخلّص الداعي إلى الماضي، أو ذلك الداعي إلى المستقبل[٨٤].

[٨٤] -بخصوص ما تقدم انظر، صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ٢٧٤-٢٨١.

الفصل الرابع

التفسير الإسلامي للتاريخ

معلومة

الفلسفة الإسلامية غير التفسير الإسلامي للتاريخ. والفلاسفة المسلمون هم:

-ابن المقفع ١٠٦ هـ - جور قُرب شيراز.
-الجاحظ ١٥٩ هـ - البصرة.
-النُظام ١٦٠ هـ - البصرة.
-الكندي ١٨٥ هـ - الكوفة.
-الفارابي ٢٥٧ هـ - فاراب -تركستان.
-المعري ٣٦٣ هـ - معرة النهمان.
-ابن سيناء ٣٧٠ هـ - أفشنة، بخارى.
-الغزالي ٤٥٠ هـ - طوس، خُراسان.
-ابن باجة أواخر القرن ٥ هـ - سرقسطة.
-ابن طفيل ٥٠٦ هـ - غرناطة.
-ابن رشد ٥٢٠ هـ قرطبة.
-ابن خلدون ٧٣٢ هـ - تونس.

(انظر، الرفاعي، عدنان: "الفلسفة العربية الإسلامية"، مجلة التراث. ع. (٩٦)، ٢٠٠٤).

في ضوء النظريات الغربية السابق إيجازها الخاصة بتفسير التاريخ، هناك من يرى أن المنهج الغربي المادي المتعلق بمعالجة الواقعة التاريخية والمسألة الحضارية قد عجز - في معظمه- عن إعطاء قراءات كلية لحركة التاريخ البشري؛ لأنه كان يؤمن بضرورة إقصاء العناصر الغيبية من مراجع المعرفة التاريخية ومصادرها، ويبني فرضياته على التجربة والعقل وأحياناً على قيم غيبية تستمد شرعيتها من التراث الإنساني نفسه. ولا شك أن هذا الفشل المتكرر قد أسهم في ظهور

مدارس أخرى في مجال فلسفة التاريخ، مثـل: التفـسير الإسـلامي للتاريخ[85] القائم على السنن الإلهية التي تضمنها القرآن الكريم.

وينقسم التفسير الإسلامي للتاريخ إلى قسمين، قسم يمثله العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، والقسم الثاني يمثله المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ، أو "فقه التاريخ".

وكلمة فقه، تعني في أبسط معانيها فهم الشيء المراد في ضوء الشرع. وإذا تحدثنا عن فقه السنن فنحن نتحدث عن كيفية فهم سنن الله في الكون في ضوء ما يـسمى 'بـالإرادة الكونيـة' وكـذلك 'الإرادة الشرعية'. ومن هذه السنن الوعد بنصر الله للمؤمنين بشروط، وأيـضا الوعد بهزيمة الكافرين والظالمين مهما طال أمد تمكنهم، فتصبح هـذه السنن مثل القوانين تسري على الحياة البشرية. وفي ضوء فقه الـسنن يمكن فهم **ثلاثة أنواع من الفقه**، وهي **فقه التاريخ**، أو فهم التاريخ أو ما يسمى عند البعض 'التفسير الإسلامي للتاريخ' الذي يختلـف عـن التفسير الرأسمالي والتفسير الاشتراكي ..، ثم **فقه الواقع** الذي يعنـى فهم الأحداث والوقائع في ضوء الضوابط الشرعية، وهو منهج يميـز المسلمين عن غيرهم حيث إنهم مأمورون بالتفكير في مغزى الأحداث وإدراكها من خلال منهج متميز للتفكير يسمى 'التـصور الإسـلامي للإنسان والكون والحياة'، والذي يسمى ' فقـه الوجـود '، **أي ذلـك المنهج الذي يفسر أو يجيب على أربعة أسئلة: من أين وجدنا ؟ وإلى أين نسير ؟ ولماذا نسير ؟ وكيف نسير ؟** .. هذه الأسئلة الأربعـة لا يقدم إجابة صحيحة عنها إلا المفكر المسلم الذي ينطلق مـن الكتـاب

---

[85]- أبو شوك، إبراهيم: "علم التاريخ إشكالات المنهجية ومشروعات الأسلمة"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة السادسة، العدد الربع والعشرون، ربيع ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. ص ٧٨.

والسنة. فالعلاقة بين الإنسان وبين الله علاقة عبودية، والعلاقة بين الإنسان والكون علاقة تسخير وتفكير، والعلاقة بين الناس وبعضهم علاقة أخوة ، والعلاقة مع الحياة علاقة ابتلاء وفتنة. ثم هناك **فقه المستقبل** وهو لا يعني التنبؤ، ولكن يعني فهم المستقبل القريب والبعيد في ضوء السنن وفي ضوء فقه التاريخ وفقه الواقع وفي ضوء فقه الوجود، وهنا يتميز المسلمون عن غيرهم[86].

وقد كتب في هذا الموضوع الكثير من العلماء والمفكرين المسلمين، ولكن تلك الكتابات متناثرة هنا وهناك. **ولذلك قام المؤلف بتجميع الكثير مما كتب وإعادة تقديمه للقارئ الكريم بشكل موضوع واحد متناسق، وبأسلوب وصياغة أصحابه مع بعض التصرف.**

---

[86] – عطا، عبد الخبير: من حوار له أجرته معه د. ليلى بيومي، منشور على موقع "مفكرة الإسلام".

أولاً: نظرية ابـن خـــــلدون (٧٣٢-٨٠٨هـــ) - (١٣٣٢-١٤٠٦م):

شـــغل هـــذا المفكـــر الدارســـين كثيراً بآرائه الفلسفية والاجتماعيـــــــة والسياسية وبكتاباتــه التاريخية وغير ذلك، بـــل وكتبـــوا عنـــه أوصافاً تليق بمفكـــر مثله، ومن ذلك على سبيل المثال. وصف "توينبي" لـــه: "أنه لم يستلهم أحـــداً مـــن السابقين، ولا يدانيه أحد من معاصـــريه، بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه مع أنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه"[87].

معلومة

زادت الدراسات حول ابن خلدون وأعماله العلمية عن ثمانمائة عنوان، بين دراسة عامة أو متخصصة في لغات متعددة أهمها العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية والعبرية حتى بعض اللغات الآسيوية المختلفة، هذا بالإضافة إلى ما يزيد عن خمسمائة أطروحة علمية بين دبلوم وماجستير ودكتوراه، قد احتضنتها الجامعات العربية والغربية، هذا فضلاً عن عشرات المؤتمرات العلمية والمهرجانات التي خصصت لهذا العالم أو لها علاقة به. انظر، الزيادي، محمد فتح الله: الاستشراق أهدافه ووسائله، دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، دمشق، ط/١ ١٤٢٦هـــ/١٩٨٨. ص ٢١٢ وما بعدها.

ومع هذا التقدير لمقدمته "مقدمة ابن خلدون"، فإنـــه لـــم يختلـــف الباحثون كما اختلفوا بصددها، هل يعد ابن خلدون بهذه المقدمة منشئ علم الاجتماع، أم مؤسس فلسفة التاريخ ؟ هل هي نظرية فـــي فلـــسفة

---

[87] صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٣١.

السياسة أم في التفسير الجغرافي للظواهر الاجتماعية ؟ أم أنه قد أسس بهذه المقدمة فلسفة للحضارة ؟. وسبب هذا التنازع هو أنه كان متعدد الجوانب، فلم يكن منحازاً إلى واحدة منها بالذات بينما درجت المدارس الفكرية على النزعة الواحدية، إنه لم يفسر الظواهر الاجتماعية أو الوقائع التاريخية في ضوء نظرية معينة دون غيرها، بل التفسيرات الاقتصادية إلى جانب التأويلات السيكولوجية (النفسية) فضلاً عن التفسير الجغرافي[88].

من هو ابن خلدون، وكيف كان عصره ؟

هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون، ولد بتونس ولكن أصل أسرته يعود إلى حضرموت في اليمن، واشتهرت أسرته بالعلم والجاه وبتولي أعلى مناصب الدولة، وهو تولى المناصب في تلمسان وغرناطة وغيرها. وقد كان القرن الرابع عشر الميلادي الثامن الهجري الذي عاش فيه، فترة تحولات كبيرة في الناحيتين السياسية والفكرية، ففي أوروبا كان الستار يسدل على عصورها الوسطى وبشائر النهضة تلوح في الأفق، أما الدولة الإسلامية فقد كانت في حال تدهور وانحدار. فالمغول أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، والنصارى يستعدون لإسقاط "غرناطة" آخر معاقل المسلمين بعد أن سقطت "طليطلة" و "قرطبة" و "إشبيلية"، وفي المغرب العربي انهارت دولة الموحدين في آخر القرن السابع الهجري، وانقسمت تلك المنطقة إلى ثلاث دويلات: "بنو حفص" في تونس، و "بنو عبد الواد" في تلمسان في المغرب الأوسط و "دولة بني مرين" في فاس، كما قامت إمارات صغيرة على يد بعض الخوارج، وهذا الانقسام قاد إلى ثورات وانقلابات وعدم استقرار، وكان الحكام يعيشون حياة بذخ وترف. الخضيري: فلسفة. ص ١٦-١٩.

وقد اعتبر ابن خلدون المجتمع كائناً حياً يتطور وفق قوانين خاصة به يمكن ملاحظتها وتحديدها عن طريق دراسة مجموع الظواهر الاجتماعية، واعتبر

[88] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٣٥.

"العصبية" أساس قيام الدولة، كما جعل الاقتصاد أهم أسباب تطور المجتمعات[٨٩] ، وكذلك من أهم أسباب انهيار الحضارات.

نظرية ابن خلدون في تطور التاريخ وانهيار الحضارة:

تتعاقب على الدول والحضارات أطوار ثلاثة:

١-**طور البداوة:** كمعيشة البدو في الصحاري والبربر في الجبال والتتار في السهول،وهؤلاء جميعاً لا يخضعون لقوانين مدنية ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم.

٢-**طور التحضر:** حيث تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح ثم الاستقرار في المدن.

٣-**طور التدهور:** نتيجة الانغماس في الترف والنعيم[٩٠].

وهذه العوامل كلها مترابطة في تطورها وانتقالها من طور إلى آخر وذلك على النحو التالي:

١-طور البداوة:

يقول ابن خلدون: إن اختلاف الأجيال في أحوالهم ناتج عن اختلاف نحلهم في المعاش، فيجتمعون على تحصيله والحرص على أخذ الضروري منه وترك

مقدمة ابن خلدون

مقدمة ابن خلدون، هي في الأصل مقدمة لكتابه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والمكون من ستة أجزاء، وقد فصلت عنه المقدمة لأهمية ما فيها من نظريات في التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب.

[٨٩] -الخضيري: فلسفة. ص ٧١-٧٢.

[٩٠] -صبحي: في فلسفة التاريخ. ص ١٤٣.

الحاجي والكمالي، فمنهم من اشتغل في الزراعة ومنهم من قام على رعي الحيوانات واستغلال خيراتها وهذا يدعوهم إلى حياة البداوة التي تتسع لأسلوب حياتهم. أما إذا زاد ذلك عن حاجاتهم لامسوا الغنى والرّفْهِ فينقلب حالهم إلى سكون ودعة وطلب المزيد فيستكثروا من الأقوات ويتأنقوا في الملابس ويوسعوا البيوت ويعمرون المدن والأمصار للتحضر.

لقد **سكن البدو بيوت** الشّعرِ والوَبَرِ أو الشّجَرِ أو من الطين والحجارة. أما **أقواتهم** فيتناولون اليسير. **وامتاز البدو بالخير** أكثر من الحضر لأنهم أقرب إلى الفطرة الأولى، كما أنهم أقرب إلى الشجاعة منهم. ولذلك **يعد البدو أقدم من الحضر**، وبالتالي تكون أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة.

أما الرابطة في هذا الدور فقد قامت على **العصبية** التي يحتاجونها للمدافعة والحماية والنُصرة وأساسها الالتحام بالنسب، ومن ثم تكون العصبية من إفراز واقع حياتهم القائم على الرعي في الصحاري والقفار، وقد كانت الرئاسة فيهم للفرع الأقوى، وفي حال حدوث الرئاسة تكون السلطة على سائر الفروع فيقروا بالإذعان والإتباع، ولا يجوز أن تكون الرئاسة لحليف لهم أبداً، ولذا كانت العصبية هي الطريق الموصل إلى المُلك الذي يزيد على الرئاسة، فالرئاسة يُطاع صاحبها وليس له على أتباعه قهر في أحكامه، أما المُلك فهو التغلب والحكم بالقهر وذلك بتلاحم وتحالف العديد من العصبيات فتصير كأنها عصبية واحدة في مواجهة عصبية أضعف

وإخضاعها[91].

٢-طـــور التحضـــر:

يسير ابن خلدون في نظريته على سياق متصل، فهـو يـرى أن هذه العصبية القوية الصاعدة إذا صادفت دولـة فـي طـور هرمهـا وتدهورها تغلبت عليها وانتزعت المُلك من يدها، أما إذا كانـت تلـك الدولة قوية نجدها تنتظم تلك العصبيات وتستظهر بها لتحقيق مقاصدها فتشاركهم النعم والخصب والكسب، وبالتالي تميل إلى السكون والدعة والراحة والترف فتذهب عنهم خشونة البـداوة وتـضعف العـصبية والبسالة فتنقرض العصبية فيكون الترف من عوائق الوصـول إلـى المُلك، ومع ذلك إذا زالت الفضائل من بيت المُلك فارتقب زوال المُلك منهم وانتزاعه من أيديهم إلى أيدي قوم غيرهم.

إن **استقرار الدولة** يعني الاستغناء عن العصبية، والاستغناء عن العصبية يضعف الدولة ولذلك تستند إلى عامل قوة أكبر وهـو الـدين لأن ذلك يزيل الخلاف ويقوي التعاضد فتتحول الرابطة مـن رابطـة النسب والتناصُر على الحق والباطل إلى رابطة الدين الذي يقيد غرائز الناس وأهوائهم، فإذا ضعف الدين تبعه ضعف العزيمة فتهرم الدولـة وتضيع.

ويقرر ابن خلدون أن اتساع نطاق الدول وطول أمـدها وتقـدم الحضارة فيها محكوم بعدة أمور هي، **مزايا الأرض، والقلة والكثـرة (السكان)، وقوة الدولة من عدمـه**. فـالأرض الخـصبة والمـساحة الواسعة توفر فرصة العمل والقدرة على الحركة. أما كثرة أعداد الناس

[91] -مقدمة العلامة ابن خلدون. روجعت وقوبلت من قبل لجنة من العلماء. منشورات، دار الفكر. ص ١٢٠-١٤٠.

(زيادة السكان) وكثرة الأتباع يكون من أسباب اتساع الدولة وقوتها وطول أمدها، ومع ذلك إذا لم يتوفر للدولة رابطة قوية وقوة سيطرة فإن كثرة السكان يتحول إلى نقمة فتكثر الأهواء والآراء وتؤدي إلى صراع يقود للخروج عن الدولة، وينتج عن ذلك أن ينفرد الملك بالمجد ويميل إلى الترف والدعة والسكون فيبدأ الهرم والتدهور[92].

٣-طور التدهور:

للتدهور وانهيار الدولة والحضارة عوامل وأسباب حددها ابن خلدون في الآتي:

(أ):الانفراد بالمجد:

إذا كان **المجد** الأول مشتركاً بين الملك وعصبيته، فإن حب المجد والاستئثار بكل شيء يؤدي إلى صراع داخلي مما يدفع لتحجيم عصبيته وكبح جماحهم، ويحتاج مُدافعتهم فيستأثر بالأموال والمغانم مما يؤدي إلى تكاسلهم عن نصرته فتفسد العصبية بذهاب البأس من أهلها.

(ب):الترف:

يقول ابن خلدون: إن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها ولكن **لما كانت طبيعة المُلك تقتضي الترف فان النفقات والعطايا تتضاعف فتضعف خزينة الدولة وينعكس ذلك على الرعية** فيزداد الفقير فقراً ويستغرق المترف فيما هو عليه من غنى ودعة ويضاعف أمواله، فتستمر الأحوال على ما هي عليه بل وتتضاعف في الأجيال التالية، ويصبح كل شخص يستأثر بالمال لنفسه والمحيطين به فتزداد نفقاتهم ولا يجد الحاكم ما ينفقه على عصبيته من شدة ما وصلوا إليه،

---

92 -المقدمة. ص ١٤٠-١٦٧.

فيلجأ إلى زيادة الضرائب فيزداد حال الناس سوءاً ولا يستطيعون شراء حاجياتهم فيحصل الكساد في الأسواق، بل أن الملك يلجأ لمشاركة الناس في تجارتهم لتغطية الإنفاق فينافسهم وتضيع الأموال فتنشأ القلاقل مما يؤدي إلى فرار الحاشية بما تحت أيديهم من أموال، فيزداد الوضع الاقتصادي سوءاً.

ومن ناحية أخرى يؤدي الترف إلى **فساد الأخلاق** فتمتلئ النفوس بالشر والانحراف، فتذهب فضائل الأخلاق وتموت الخيرية فيكون ذلك علامة على الإدبار والانقراض.

(ج):الدعة:

إذ تأخذهم الدعة والراحة فتتربى أجيالهم في مهاد الترف وما يتبعه من قبائح، فتنقلب أخلاقهم وتذهب عنهم صفات البداوة من القوة والإقدام وشدة البأس وضعف الحماية فتنكسر شوكتهم فيعود وبال ذلك كله على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم، ثم لا يزالون يتلونون وينحدرون نحو السكون والدعة والرقة، وينغمسون في ما لذ وطاب، فيصبحون عيالاً على الدولة فتضعف بهم، فيلجأ صاحب الدولة إلى صنع أنصار غيرهم ومن غير بني جلدته ممن لا يزالون قادرين على الحماية وقادرين على الصبر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف فيكون ذلك دواء لهرم الدولة.

وهكذا تتعاقب الأدوار الحضارية عند ابن خلدون كتعاقب الأجيال فتكون لها أعماراً مثلهم، وقال أن الدولة في الغالب لا يزيد عمرها عن ثلاثة أجيال وجعل للجيل مائة عام يكون **الأول** على خلق البداوة وعصبيتها وخشونتها وتوحشها، ويكون **الثاني** قد تحول إلى الترف والدعة، وأما الجيل **الثالث** فينسون الخشونة تماماً ويصبحون عيالاً

على الدولة من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستكثار بالموالي للدفاع عن الدولة حتى ينتهي أجلها[٩٣].

كذلك حدد ابن خلدون أسباباً عديدة أخرى لفناء الدول والحضارات وذلك كما يلي:

١-إذا غُلبت الأمة وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناء[٩٤].

٢-إذا تحكمت طبيعة الملك من الإنفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم[٩٥].

٣-الظلم مؤذن بخراب العمران[٩٦].

٤-زيادة احتجاب صاحب الدولة من العامة وما يليه من احتجاب كبار معاونيه، ثم من يليهم، فلا تصل الشكوى وتحتجب الحقيقة عن الملك فيزيد التذمر فتتداعى الدولة[٩٧].

٥-إذا انقسمت الدولة الواحدة إلى دولتين بسبب الظلم وغياب العدل[٩٨].

٦-تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة[٩٩]. ولذلك تكون الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده[١٠٠]. وتفصيل ذلك:

---

93 -المقدمة. ص ١٦٨-١٨٣.

94 -المقدمة. ص ١٤٨.

95 -المقدمة ص ١٦٨.

96 -المقدمة ص ٢٨٦.

97 -المقدمة. ص ٢٩٠-٢٩٢.

98 -المقدمة. ص ٢٩٢.

99 -المقدمة. ص ٣٧٤.

100 -المقدمة ص ٣٧١.

*الحضارة في العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل.

*إذا بلغ التأنق مداه تبعه طاعة الشهوات، فلا يستقيم الحال لا في دين ولا في دنيا.

*كثرة العمران تؤدي إلى غلاء المعيشة، ويسوء الحال أكثر بزيادة المُكوس (الضرائب).

*تزيد الأسعار فيكثر الإنفاق فتقل الإمكانيات فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة، فيفسد الناس فيكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيُّل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة فيزداد الكذب والمقامرة والغش والسرقة والفجور في الإيمان والربا في البياعات، فيتبع ذلك مجاهرة بالفسق والخديعة، فيتمادون في ذلك حتى يصير عادةً وخُلُقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله. ويموج بحر المدينة بالسَّفَلَة من أهل الأخلاق الذميمة، ويحاربهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أُهمِل عن التأديب .. ولهذا نجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدُّوَل منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة، وإذا كثر ذلك في المدينة والأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها. ووجهُهُ حينئذ أن مكاسِبَهُم لا تفي بحاجتهم لكثرة العوائد ومُطالبة النفس بها فلا تستقيمُ أحوالُهُم، وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت.

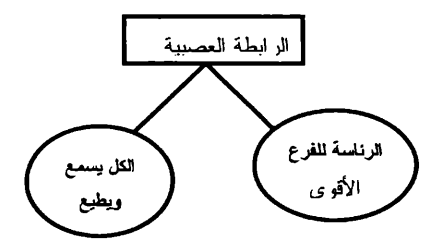
٧-من مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ، فيفضي ذلك إلى فساد النوع.

٨-إن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلــغ غايتــه انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانـــات، بــل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلــب منافعِــهِ ودفــعِ مــضارهِ واستقامةِ خُلُقِهِ للسعي في ذلك[101].

ملخص توضيحي

١-البداوة:

يجتمع الناس على تحصيل المعاش ← الغنى والترف- ← سـكون ودعــة ← طلــب المزيــد- ← الاهتمام بالمظاهر ← توسيع البيــوت والعمــران- ← المدن المتحضرة.

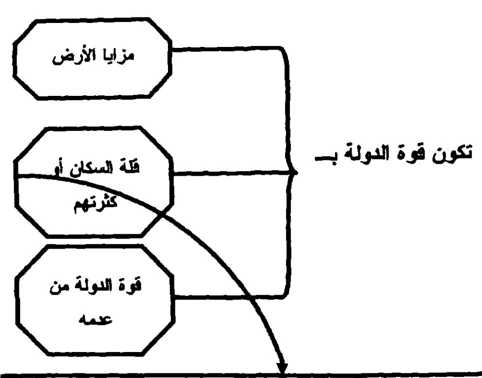


[101] -المقدمة. ص ٣٧١-٣٧٤.

٢-التحضر:

*وجود عصبية قوية صاعدة ⟵ تصادف دولة متدهورة أحياناً ⟵ تتغلب عليها وتنـزع منهـا المُلك ⟵ ثم تستظهر بالعصبيات ⟵ مـشاركة أهل تلك الدولة النعم والخـصب والكـسب ⟵ الـسكون والدعة والراحة والترف ⟵ ذهاب الخشونة وضـعف العصبية ⟵ انقراض العصبية ⟵ زوال المُلك.

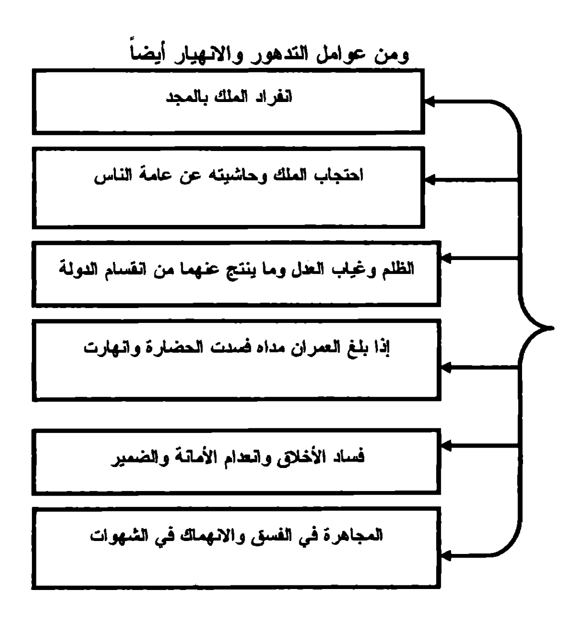
*استقرار الدولة ⟵ ضعف العصبية ⟵ حينئـذ تستعيض الدولة عن العصبية بالدين فتستقوي به فيتناصر الناس علـى الحق.



التدهور:

الانفراد بالمجد ← الترف ← فساد الأخلاق ← الإسراف في الإنفاق على العصبيات الجديدة ← زيادة الضرائب ← زيادة الأسعار ← كساد اقتصادي ← مشاركة الملك للناس في التجارة لتغطية نفقاته ← تضيع الأموال وتنشأ القلاقل ← فرار الحاشية بما معهم من أموال ← يزداد الاقتصاد سوءاً.

ومن عوامل التدهور والانهيار أيضاً



ثانياً: المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ:

برزت قضية أسلمة علم التاريخ في الربع الأخير من القرن العشرين للميلاد، نتيجة لدافعين رئيسيين: أحدهما ذاتي عقدي والآخر خارجي أيديولوجي. ويتمثل الدافع الذاتي العقدي في قول عماد الدين خليل:

"إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم، تلك هي أن مساحة كبيرة في سوَره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان، مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ (الحضارية) التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب. وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم، بحيث أن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ"[١٠٢].

ويواصل عماد الدين خليل التعريف بالتفسير الإسلامي للتاريخ قائلاً:

"إن القرآن الكريم لا يقدم قصصه، وصوره، ومشاهداته، لمجرد ترف ذهني أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور

102- أبو شوك: علم التاريخ ...، ص ٧٨-٧٩.، وانظر كذلك، خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٥.

والمشاهدات، ولا لنزعة أكاديمية فيه تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً بأكبر قدر من الأمانة، ودون الاكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإشاراته الأخلاقية .. إن القرآن يجئ بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده –في الوقت ذاته– فرداً وجماعة، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب .. كما يجئ بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية (بعموم معنى الإسلام)، كأنه يريد أن يقول للإنسان الواعي أن أمامك صيغتين للعمل في العالم، لا ثالثة لهما، وأن عليك أن تختار: إما هذه أو تلك ..

قال تعالى في سورة آل عمران ١٣٧-١٣٩: ((قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾)).

إن القرآن الكريم يقدم منهجاً متكاملاً في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية-التاريخية.

إن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن يؤكد، أكثر من مرة،

على أن التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ كميدان للدراسة والاختبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها، وبالتالي فإن الموقف الإسلامي من التاريخ يتميز بمرونته وبعده عن التوتر أو التأزم المذهبي الذي يسعى إلى قولبة الوقائع التاريخية وصبّها في هيكله المسبق، واستبعاد أو تزييف كل مالا ينسجم وهذا الهيكل، الأمر الذي يوقع التفاسير الوضعية في كثير من الأخطاء والانحرافات. هذا إلى أن الفكر الوضعي لا بد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه سلباً وإيجاباً، وبدرجة أو أخرى، وهذا التأثير المحتوم ينعكس ولا ريب على معطياته الفكرية سواء أكانت صيغة هذا التأثر بشكل تقبّل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه، أم رفض لها وتمرد عليها. ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثري الانفعالي، والاسقاطات الظاهرة والخفية، في الوعي واللاوعي،دوره في الرؤية التي يمارسها المفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء.

أما التفسير الإسلامي الذي يستمد من رؤية الله التي تعلو على الزمان والمكان وتتجاوز مواصفات العصر النسبية، فإنه ينظر بانفتاح تام إلى الأحداث، ويسلط الأضواء على مساحتها جميعاً، دون أن يقتصر على الأحمر أو الأخضر لكي تبدو حمراء أو خضراء ..، إن رؤيته للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلية .. فيما كانت عليه، وما هي عليه، وما سوف تكون عليه. وتتجلى هذه الواقعية في أنه يتكلم عن الواقع كما هو، دون تبرير أو تعديل أو تحوير، فهو يسمي معركة حنين هزيمة وفراراً ويخاطب مهزومي أحد بأنهم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة، ويعلم

المسلمين من خلال واقعيته هذه، ألا يبرروا أخطاءهم وينحرفوا في تفسير الأشياء والوقائع، ولكنه يُعلمهم -في الوقت نفسه- أن يفيدوا من هذه الرؤية الواقعية للتاريخ لصياغة العالم المرتجى.

وهكذا فإن هناك فرقاً منهجياً حاسماً بين المذاهب الوضعية والمذهب الإسلامي في تفسير التاريخ ..، فالمذاهب الوضعية جاءت كقضية (بعدية) تسعى إلى أن تجبر (القبليات) على التشكل بها.

أما في القرآن فإن التفسير ينبثق عن رؤية الله سبحانه، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علماً بوقائع التاريخ، بأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع المتمثل في رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علماً، والتي صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء.

ومن ثم فإن التفسير القرآني هو تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ يصوغها القرآن الكريم في مبادئ عامة يسميها (سنناً) ويعتمدها المفسرون الإسلاميون منطلقاً -لا لتزييف التاريخ- وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومصائر وقائعه ومسالكها المعقدة المتشعبة. وهو -إذن- تفسير شامل محيط، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسيّر هذا التاريخ، وبما أن هذه السنن من صنعه تعالى، إرادة وعلماً ومصيراً، فإن هذا الموقف القرآني من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال. من أجل هذا يغدو التاريخ في القرآن الكريم وحدة زمنية تكون بموجبه الحياة الدنيا فعل تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم، وتحكمه

القيم الروحية التي هي ليست مجرد ممارسات فردية وشعائرية، بالمعنى اللاهوتي، بل هي قيم ذات جذور عريضة وارتباط متين بقلب العالم، وحركة التاريخ، وبواقع الحياة البشرية والوجود الجماعي على السواء"[١٠٣].

وقد اتسعت بمرور الوقت الدراسات المتعلقة بالتفسير الإسلامي للتاريخ، ومن ثم تشكلت معالم رئيسة لهذا التوجه باتت تشكل نظرية مستقلة بذاتها، وتعتمد على منطلقات (مسوغات)، ومرتكزات فكرية محددة أوضحها علماء التفسير الإسلامي للتاريخ بالآتي:

(أ): المنطلقات:

١-**رفض المنهج الغربي المادي المتعلق بمعالجة الواقعة التاريخية، والمسألة الحضارية**، ويحتجون بأنه منهج علماني يؤمن بضرورة إقصاء العناصر الغيبية من مراجع المعرفة التاريخية ومصادرها، ويبني فرضياته على التجربة والعقل، وأحياناً على قيم غيبية تستمد شرعيتها من التراث الإنساني نفسه.

٢-**رفض مبدأ الحتميات** (الحتمية التاريخية، الحتمية المادية، الحتمية الاقتصادية) باعتباره مبدءاً يهدف إلى تحقير الإنسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وفضله على كثير من خلقه، وذلك في قوله في سورة الإسراء (٧٠):

((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

[١٠٣]-انظر، خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. ص ٧-١٧.

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)).

وعليه فإن الحتمية الوحيدة المعترف بها في هذا الإطار هي حتمية القدرة الإلهية التي لا تلغي دور الإنسان الإيجابي وفاعليته؛ لأنها حتمية نتائج قائمة على أسباب معينة. وهذه الأسباب هي حصيلة إرادة الإنسان الحرة، التي تجعله ملزماً بتحمل النتائج المترتبة على فعله التاريخي في الدنيا والآخرة.

٣-**رفض التفسير الوضعي القائم على مبدأ الضرورة، وقوانين التطور**؛ لأن هذه القوانين والقواعد المادية المصاحبة لها تجعل الإنسان مجرد عنصر ثانوي من عناصر التاريخ وتخضع حركاته وسكناته إلى قوة العناصر المادية القاهرة التي تجعل عطاءه الفكري، والعقدي، والاجتماعي،، مجرد تجليات لتأثير الظروف المادية المحيطة به. وهذه الفرضية تتعارض مع قوله تعالى في سورة الرعد (١١): ((إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ)). علماً أن هذا القول الفصل يعطي الإنسان دوراً إيجابياً في حركة التاريخ، وصناعة وقائعه دون أن يكون تابعاً لهذه الوقائع أو دائراً في فلكها دوراناً يفقده حركته الفاعلة.

٤-**رفض نظرية "داروين" في التطور البشري.**

٥-**رفض التحقيب الثلاثي الأوروبي الذي يقسم تاريخ العالم العام إلى "قديم، ووسيط، وحديث"**؛ لأن هذا التقسيم لا يراعي خصوصيات تواريخ الشعوب الأخرى. وشاهدهم في ذلك أن التحقيب الثلاثي الأوروبي يضع تاريخ العصر الذهبي للحضارة الإسلامية،

وعدداً من أروع الحقب التاريخية البيزنطية، وإنجازات سلالة "تانغ" الصينية وغيرها من الحضارات الأخرى، داخل عباءة العصور الأوروبية المظلمة (الوسطى).

٦-**يرون أن أي تفسير لتاريخ الأمة الإسلامية يقصي البعد الديني عن أدواته التحليلية محكوماً عليه بالقصور والفشل الذريع؛** لأنه لا يستند إلى النص الإسلامي الذي يمثل أقوى العوامل الحاسمة في صياغة إسهامات الأمة الإسلامية، وتشكيل رصيدها التاريخي الضخم. وشاهدهم في ذلك أن معظم المستشرقين الذين اهتموا بدراسة تراث الأمة الإسلامية قد أخطئوا الظن في فهم وحدته التاريخية، وطبيعة نسيجه الداخلي المتجانس.

(ب): المرتكزات الفكرية:

١-إن المساحة الواسعة التي خصصها القرآن للمسألة التاريخية كافية لأن تضع المرتكزات الفكرية للتفسير الإسلامي للتاريخ، التي يمكن من خلالها ربط قيم السماء والأرض، وتأصيل قضية خلق الإنسان، واستيعاب طبيعة الصراع بين قوى الخير والشر، ثم فهم المصير المحتوم الذي ستؤول إليه هذه القضايا. **ومن ثم يمكن تحديد هذه المرتكزات في الإقرار التام بأن الفعل التاريخي لا يتحقق إلا في إطار المشيئة الإلهية، حيث تتطابق نتائجه مع علم الله سبحانه وتعالى في كل زمان ومكان، وتختلف أسبابه اختلافاً طردياً مع حرية الاختيار المتاحة للإنسان لتنفيذ الفعل التاريخي، وذلك في إطار علاقته المتبادلة مع "علم الأفكار" و "علم الأشياء"**[١٠٤]. ويتخذ الفعل الإلهي لخلق الحدث التاريخي وصياغته شكلين اثنين: **فعل إلهي مباشر**

---

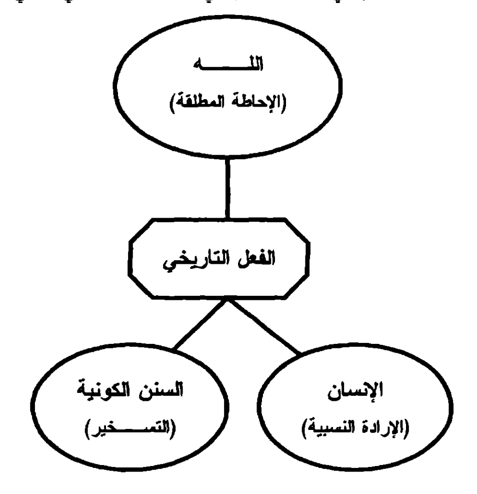
[١٠٤] -أبو شوك: التفسير الإسلامي. ص ١٣٣.

و **فعل إلهي غير مباشر.**

(أ): الفعل الإلهي المباشر: وهو الذي يأتي متناسقاً مع النواميس الكونية والقوى الطبيعية، أو يتجاوز النمط المعهود ويتبلور فيما يعرف بخوارق العادات التي تأتى بشكل قوى مادية محسوسة، كالسيل، والجفاف، والغرق والطوفان، أو غير محسوسة مثل تأييد الله لعباده الصالحين عن طريق الملائكة.

(ب): الفعل الإلهي غير المباشر: وهذا يحدث في إطار الحرية الإنسانية التي كرم الله بها بني آدم، وبلورها في قوى العقل والإرادة والانفعال، والحس، والحركة، ثم جسد استجابات هذه القوى في الفعل الإنساني المؤثر في البيئة والمتأثر بها.

ويتمثل الفعل الإلهي غير المباشر في الشكل التوضيحي التالي:



٢- قضية الصراع البشري الذي يتبلور في عملية نشوء الحضارات وسقوطها، أساسه الصراع بين آدم وإبليس (كشكل للصراع بين الخير والشر) وفق معايير تعكس قيم الإيمان والكفر، وتجسد أدبيات الحق والباطل، ويتبلور ذلك في بعدين لا ثالث لهما:

*أحدهما بُعد "ذاتي عمودي" يرتبط بمواجهة الإنسان لنفسه في إطار تفاعله مع البيئية والمؤثرات الاقتصادية.

*وآخر "خارجي أفقي" يتعلق بالقضايا الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[١٠٥].

٣-ويتمثل المرتكز الفكري الثالث في إعادة تحقيب التاريخ العالمي العام إلى حقبتين فقط هما: "التاريخ القديم" وينتهي في القرن السابع الميلادي، و "التاريخ الحديث"

معلومة

اعتمد علماء التفسير الإسلامي للتاريخ في البداية على مصطلحات فلسفات التاريخ الغربية، مثل (الصراع)، ثم اعتبروا أن الأمر قد يصبح تقليداً ليس فيه جديد، ولذا أقروا استبدال مصطلح الصراع بمصطلح (التدافع) الوارد في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة البقرة (٢٥١):

((وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ)).

ووفقاً لذلك تكمن غاية التدافع في تحريك الحياة الإنسانية نحو الأفضل، وتحقيق التوازن المنشود لصالح قوى الخير التي تحكمها السنن الكونية، والالتزام الواعي بمقاصد الشرع، مقابل الغرائز الدنيوية وهوى النفس اللذين يُعدان بمثابة القوى المحركة لقوى الباطل. (أبو شوك: التفسير. ص ١٣٨).

[105] -أبو شوك: التفسير الإسلامي. ص ١٣٦-١٣٧. وانظر التفاصيل في، خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. ص ٢٣١-٢٥١.

ويبدأ من ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وحتى ... (أي حقبة العصر الجاهلي، وحقبة العصر الإسلامي).

ماذا يقصد بالعصر الجاهلي ؟

اختلف العلماء في تفسير معنى الجاهلية. هل تعني "الجهل ضد العلم ؟"، أم هي "عدم الخضوع لقانون عام سوى قانون البادية في مقابل الإسلام وما يعنيه من الخضوع للقانون الإلهي". ويبدو أن وجهة النظر الأخيرة تتفق مع ما جاء في القرآن الكريم: "قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون" (الزمر ٦٤)، و "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية" (آل عمران ١٥٤)، و "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون" (المائدة ٥٠)، و "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً " (الفرقان ٦٣). وكذلك قول الرسول ﷺ للصحابي أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عندما عاب على رجل من المسلمين كونه ابن سوداء" "إنك امرؤ فيك جاهلية". (برو، توفيق: تاريخ العرب القديم. دمشق، ط٢، ١٩٩٦. ص١١. وبذلك يكون المفهوم: مرحلة الكفر في مقابل مرحلة الإسلام وهو مفهوم ممتد حتى تقوم الساعة؛ لأن فيه تفريق واضح بين الابتعاد عن دين الإسلام وبين اتباع هذا الدين.

ووفقاً لما تقدم نادى علماء التفسير الإسلامي للتاريخ بضرورة إعادة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية بحسب تلك المرتكزات، ووضع المرويات التاريخية في ميزان الجرح والتعديل ذلك المنهج الصارم الذي يطبقه أهل الحديث النبوي[106].

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور محمد عمارة: "إن مجرد **كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ليس هو القضية، وإنما القضية في طبيعة المنهج الذي سنتسلح به إذا نحن أعدنا النظر في هذا التاريخ.**

[106]-أبو شوك: التفسير الإسلامي ص١٣٩-١٤٨.

فالموقف الاجتماعي والفكري لذلك الذي يدخل حقـل إعـادة النظـر والتقييم لهذا التاريخ، هو الذي سيحدد الصورة الجديـدة. ومـن هنـا تعددت وتنوعت في كل الأمـم مـدارس التـاريخ بتعـدد المواقـف الاجتماعية والفكرية والفلسفية"[١٠٧].

وفي موضوع التفسير لإسلامي للتاريخ، تبرز ثلاثة أمور هـي: **نشؤ واستقرار الحضارات واستمرارها، وعوامل سقوط الحـضارات، والسنن الربانية العامة.**

١-التصور الإسلامي لنشؤ واستقرار الحضارات واستمرارها:

أ-فكرة المصير في القرآن الكريم:

إن نهاية الإنسان، وما سيؤول إليه بعد الموت، تناولته الديانات السماوية كافة: اليهودية، والنصرانية، والإسلام. لكن الدين الإسلامي كان أكثر وضوحاً في هذا الأمر.

لقد عالج القرآن مسألة الزمان بشكل واضح لا لبس فيه، فالوجود نوعان: وجود يرتبط بالزمن، فهو وجود متزامن، وهو هنا مخلوقات الله جميعاً، ويأتي في مقدمتها الإنسان، **ووجود خارج عن إطار الزمان والمكان،** فهو وجود غير مرتبط بزمن، وهو الله سبحانه وتعالى، وهو المطلق.

غير أن هذين الوجودين مرتبطان ارتباطاً فلسفياً عميقاً، يتجلى بصورة واضحة في العلاقة بين الخالق (**اللامتزامن**) وبين المخلوق الإنسان (**المتزامن**)، وبين المطلق (**الله**) وبين النسبي (**الإنسان**).

إن هذه العلاقة كانت الحلقة المفقودة في تصور العرب

---

[107] -عمارة، محمد: دراسات في الوعي بالتاريخ، بيروت، ط/١ ١٩٨١. ص ٢٢.

المشركين، فصار الزمان أو الدهر مصدر شقاء؛ لأنه يوردهم موارد الفناء والعدم، في حين نجد أن فكرة الزمان في التصور الإسلامي قد استبعدت كل معاني الخوف والشقاء. -

لقد ألغى القرآن فكرة العدم والفناء اللتين يمثلهم الموت، وأكد على حياة أخرى تجئ بعد يوم البعث أو القيامة، وسيحاسب الإنسان على جميع ما عمله في حياته الدنيا، فإن كانت أعماله صالحة فاز بالجنة، حيث الخلود والنعيم،وإن كانت أعماله سيئة أدخل النار، حيث العذاب الأليم، وبذلك انتفت فكرة الفناء للإنسان.

قال تعالى في سورة "يس ١٢": ((إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ))، ليس ذلك وحسب، وإنما أصبح كل ما جناه الإنسان في حياته الدنيا مسطراً ومكتوباً يوضع بين يديه يوم الحساب في الآخرة: قال تعالى في سورة "الإسراء ١٣-١٤":

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا*)). وهكذا لم تعد الأفعال التي قام بها الإنسان في الماضي منسية ضائعة بعد موته، لذا أصبح للماضي قيمة كبيرة في نظر المؤمنين، وهو ما يرتبط بفكرة العبرة والاتعاض بأحداثه، وبتجارب الأمم والشعوب التي مضت، والوقوف والتأمل في ما فعلته في حياتها من خير، فكان سبب تقدمها وفوزها وسعادتها في

الدنيا، أو بما ارتكبته من طغيان وتظالم وتقاعس عن فعل الخير، فكان فيه هلاكها ودمارها. وبذلك توثقت مكانة الزمان الماضي في حياة الإنسان، وهذا هو التاريخ بعينه.

لقد نفى القرآن الكريم نفياً قاطعاً أي معنى للعبثية في وجود الإنسان، وهي الفكرة التي كانت سائدة عند عرب ما قبل الإسلام، يقول تعالي في سورة "المؤمنون ١١٥": ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)).

وبهذا تحدد الزمان في: خلق العالم بوصفه بدايته، وبيوم القيامة بوصفه نهايته، وبين البداية والنهاية تتم كافة الفعاليات التي يقوم بها الإنسان.

ب-البعد الحضاري في القرآن الكريم "الاستخلاف":

يقول تعالى في خلق آدم: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)) المؤمنون ١٢. كما يقول سبحانه: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) الحجر ٢٨. ثم يبين في آية أخرى الدور المنوط بهذا المخلوق فيقول سبحانه: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ

إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) البقرة ٣٠.

وفكرة الاستخلاف هذه تقوم على دعامتين، هما: الإيمان بالله، والعمل الصالح، ونبذ وتجنب كل ما من شأنه الإفساد في الأرض. وفي ذلك يقول الخالق: ((وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)) (النور ٥٥)[١٠٨].

وترتبط مسألة الاستخلاف بحسب الآيات المشار إليها سابقاً (البقرة ٣٠ ، النور ٥٥) بالخيط الطويل العادل، من طرفيه: العمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله تعالى والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم. والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة، بحيث أن افتقاد أي منها سيقود إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة، ويقود إلى إحلال جماعة أخرى بديلة تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه: العمل والجهد والإبداع، والتلقي الدائم عن الله تعالى لضبط وتوجيه هذا

---

[108]- محل، سالم أحمد: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب. كتاب الأمة، العدد ١٦، قطر ١٤١٨هـ. ص ٥٣-٥٤.

العمل، وبالتالي وضع هذه الأعمال في مسالكها الصحيحة التي تجعل الإنسان يقف دائماً بمواجهة خالقه كخليفة مفوض عنه لإعمار العالم. ويبلغ من تأكيد القرآن الكريم على العمل والجهد البشري للإعمار، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً[109].

ولكي لا تنهار هذه الحضارة بالفساد الذي يسببه الظلم والطغيان، ظلم الناس وطغيانهم بعضهم على بعض، فإن الالتزام بمقتضيات الإيمان بالله فيما أمر ونهى، يعد العامل الأساس الثاني في ديمومة الحضارة واستمرارها.

والبناء الحضاري لا يكون إلا في العمل الجاد والمخلص، ولذلك حث الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ((وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ)) (العصر ١-٣). وقوله تعالى: ((لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ)) (التين ٤-٥). وقوله كذلك:

((وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)) (فصلت ٣٣).

ومن ذلك يتضح أن الإيمان والعمل الصالح هما اللذان يبدعان

---

[109] -خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. ص ١٩٣- ١٩٤.

الحضارة، وبهما تتحقق سعادة الإنسان على الأرض، وكلما أبدى الإنسان ضرباً جديداً من الهمة والنشاط والإبداع، كلما ارتقى مدرجاً جديداً من مدارج الحضارة التي يصنعها لنفسه ولبني جنسه من البشر، والإيمان بالله وتلقي هدايته عن طريق رسله وأنبيائه، هو الكابح الذي ينظم المسيرة الحضارية، ويحفظ لها التوازن من الطيش والتعالي والتظالم والطغيان، مما يجعل حياة البشرية اكثر سعادة ورخاءً وأمناً"[110].

إن حسن استغلال الإنسان لنعم الله عليه، وشكره على ذلك، وعبادته وحده، فيه الخير والتطور. أما سعي الإنسان إلى الفساد في الأرض فيؤدي إلى هدم جميع المنجزات الحضارية التي شيدها البشر فرادى وجماعات. ولذلك يقول سبحانه في الساعين إلى الفساد والإفساد:

((وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ)) البقرة ٢٠٥. وعلى الإنسان الاعتبار من الأمم الماضية وتجنب المصير الذي آلت إليه؛ بفعل محاربة دين الله وعدم العمل بما يحث عليه ويأمر به. قال تعالى: ((فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ

---

[110] -محل: المنظور. ص ٥٥-٥٦.

بِهَآ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ)) الحج ٤٥-٤٦، [111].

ج-أخبار الأمم الماضية:

قص القرآن الكريم أخبار بعض الأمم التي سبقت الإسلام، فذكر قوم نوح وعاد وثمود ومدين، وقوم إبراهيم وقوم لوط وموسى وعيسى ويونس -عليهم السلام-، إضافة إلى ذكر سبأ وذي القرنين[112].

إن الحشد المبين في الآيات المشار إليها في الحاشية من القصص عن الأنبياء وعن أممهم في القرآن الكريم، جاء بهدف العضة والعبرة التي يجب أن يتلمسها الإنسان في حياة الأمم الماضية، وأن يتدبر ويتمعن في نتائجها، ولم تكن الغاية منها المعرفة التاريخية بذاتها[113].فإذا ما نظرنا لموضوع حق الدول في امتلاك القوة على سبيل المثال، سنجد أن الله سبحانه وتعالى لم ينكر على قوم عاد امتلاكهم القوة وإنما أنكر عليهم أن يجعلوها وسيلة للظلم والتفاخر، كما جاء في قوله تعالى:

((وَيَـٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ)) (هود ٥٢). بدلاً عن

---

[111] -محل: المنظور. ص ٥٦-٦١.

[112]-انظر سورة الشعراء (٧٠-٧١)، وسورة يونس (٧٥)، وسورة هود (٥٠، ٦١).

[113] -محل: المنظور. ص ٦٢-٦٣.

كونها وسيلة للدفاع عن النفس وللذود عن دين الله، ولدعم مسيرة دعوته في العالم. وهنا يتضح أن أخبار الأمم الماضية في القرآن هي الأساس في استنباط السنن الإلهية التي تحرك مسار التاريخ.

د-وحدة الرسالات السماوية:

ما هو موقف الإسلام من الديان السماوية التي ظهرت قبله ؟ وما هي صلة الإسلام بها ؟ هل يرتبط الإسلام بهذه الأديان من قريب أو بعيد ؟. والجواب على هذه الأسئلة نجده في القرآن الكريم، قال تعالى: ((ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ)) البقرة: ٢٨٥.

ويتضح من ذلك أن العقيدة واحدة عند جميع الأنبياء والمرسلين، وهي الإيمان بالله تعالى إلهاً واحداً لا شريك له، أما التباين بين أولئك الأنبياء عليهم السلام فيكمن في الشرائع التي جاءوا بها من عند الله، تبعاً للظروف الزمانية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية للجماعات أو الأمم التي بُعثوا لهدايتها، ولذا لا توجد أديان سماوية متعددة، وإنما توجد شرائع سماوية متعددة، نسخ اللاحق منها السابق، إلى أن استقرت الشريعة السماوية الخيرة، التي قضت حكمة الله أن يكون مبلغها هو خاتم الأنبياء والرسل أجمعين. **ويتضح من فكرة "وحدة الرسالات" أن القرآن الكريم قد جاء بنظرة عالمية للتاريخ،** وقد تمثلت هذه النظرة في توالي النبوات التي هي في

أساسها رسالة واحدة بشر بها أنبياء عديدون، كان النبي محمد ﷺ خاتمهم. وهذه النظرة -لا شك- كان لها الأثر الكبير في إرساء دعائم التصور الإسلامي لتفسير التاريخ وكتابته[114].

(هـ): دور الفكرة الدينية (العقيدة) في نشأة وتطور الحضارة واستقرارها:

إن الحضارة، -كما هو ملاحظ- لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، والحضارة لا تظهر في أي أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجاً. فمثلاً لم يكن للعرب دور في الأرض، كانت ممالكهم قبل الإسلام إما مستعمرة مثل اليمن التي هي تحت حكم الحبشة ثم الفرس أو تابعة لقوى كبرى كحال المناذرة التابعين للفرس والغساسنة التابعين للرومان، وأما وسط الجزيرة فكانت القبائل في حالة تفكك ولا تساوي شيئاً أمام القوى العالمية، بل كان يمكن أن تقوم الحرب بين القبائل أربعين سنة، ولم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة"[115]. لذلك كانت العوامل الثلاثة الإنسان و التراب و الوقت راكدة خامدة أو مكدسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ حتى تجلت الروح بغار حراء كما تجلت من قبل بالوادي المقدس أو بمياه الأردن، فنشأ من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، كأنما ولّدتها كلمة "إقرأ" التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم"[116].

فالعرب لم يكن لهم دور في الأرض، وتحت راية الإسلام ولأول

---

[114] -محل: المنظور: ٦٥-٧٢.

[115] -قطب، سيد: في ظلال القرآن،ج٦، القاهرة، ط٢٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ص ٣٩٨٠.

[116] - بن نبي، مالك: شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دمشق، ط٦، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ص٥٦-٥٧.

مرة في تاريخهم أصبح لهم دور عالمي يؤدونه وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب؛ لأنهم نسوا أنهم عرب، نسوا نعرة الجنس وعصبية العنصر، وذكروا أنهم مسلمون ومسلمون فقط ورفعوا راية الإسلام وحدها، وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية، ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية، حملوا فكرة سماوية؛ لأنه لا قيمة لأمة لا تقدم للبشرية فكرة، فالأمم التي قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة، والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلاً، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها. والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للإنسانية كانت هي العقيدة الإسلامية[117].

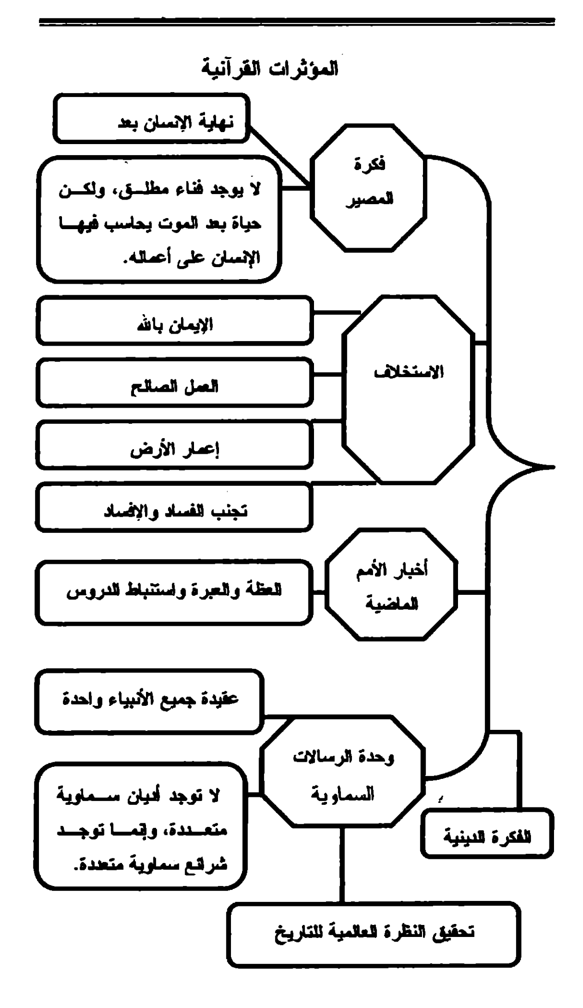
أما تأثير الفكرة في المجتمع أو الأمة فيبقى مرتبط بشروط منها، **القابلية الداخلية** لأبناء الأمة لهذه الفكرة أو تلك، **وعنصر المكان** لإحداث التغيير الاجتماعي. **فالفكرة الإسلامية** مثلاً ما استطاعت أن تؤدي دورها إلا لكون شبه الجزيرة العربية كانت مكاناً ملائماً وأرضاً عذراء تستطيع أية فكرة دينية أن تمد فيها جذورها، وكأن الإنسان العربي بها مهيأ فطرياً لقبول التحضر، **أما الفكرة المسيحية**، فهي على عكس هذا بحيث ولدت على أرض مزدحمة بالثقافات التاريخية كالإغريقية والرومانية وبقايا العقائد الفانية كاليهودية، وجميعها تحتل منذ زمن بعيد مجال عملها، فكان من العسير على المسيحية في هذا الظرف أن تجد عناصر اجتماعية حرة كافية لكي تحدث تركيباً جديداً، ولذا هاجرت وغادرت مهدها في فلسطين بحثاً عن الظروف الملائمة

[117] -قطب: في ظلال القرآن. ص ٣٩٨٠-٣٩٨١.

إلى غرب أوروبا حيث أنهت الحضارة الرومانية دورتها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وهذا هو الذي يفسر أن المسيحية التي ولدت قبل الإسلام بستة قرون لم تبدأ مهمتها التاريخية إلا بعد الإسلام بستة قرون بعيداً عن مسقط رأسها[118].

ولمزيد من الإيضاح وتيسير فهم ما تقدم، نوضح فيما يلي خلاصة بيانية كاملة:

118 بن نبي، مالك: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية. ترجمة: عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. ص ٥١-٥٤، وانظر، هيشور: سنن القرآن . ص ١٢٨.


المؤثرات القرآنية
نهاية الإنسان بعد
فكرة المصير
لا يوجد فناء مطلق، ولكن حياة بعد الموت يحاسب فيها الإنسان على أعماله.
الإيمان بالله
الاستخلاف
العمل الصالح
إعمار الأرض
تجنب الفساد والإفساد
أخبار الأمم الماضية
العظة والعبرة واستنباط الدروس
عقيدة جميع الأنبياء واحدة
وحدة الرسالات السماوية
لا توجد أديان سماوية متعددة، وإنما توجد شرائع سماوية متعددة.
الفكرة الدينية
تحقيق النظرة العالمية للتاريخ

٢-عوامل سقوط الحضارات:

أولاً: مـــداولة الأيام بيـــن الناس:

يقرر القرآن الكريم حقيقة مداولة الأيام بين الناس (وتلك الأيــام نداولها بين الناس). (آل عمران ١٤٠)، وتوحي "المداولـــة" بالحركـــة الدائمة، وبالتجدد، وبالأمل، وتقرر أن الأيام ليست ملكاً لأحد، ومن ثمَّ فلا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم الآن في القمة، ســتنزلهم حركـــة الأيام إلى الحضيض، ومن هم في القاع، ستصعد بهم الحركة نفسها — من خلال فعلهم الحر وحركتهم واختيارهم — إلــى القمـــة. وتحمـــل المداولة القرآنية كافة جوانب إيجابيتهـــا التاريخيـــة: حركـــة العـــالم المستمرة، وتمخض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البـــشري الـــذي يـــرفض الحـــزن والهـــوان (وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) آل عمران ١٣٩.

فالقرآن الكريم يطرح مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية الـــسقوط، والمداولة كوسيلة للاستعادة، ولا نقول للاستمرار، لأنَّه ليس بإمكان أية جماعة بشرية أن تظل متوترة الإرادة في مواجهة التحديات الدائمـــة، قرناً بعد قرن، دون أن تضعف أو تغفل أو تفقد توترها هذا، فتتخلـــى عن مكانها المتقدم للجماعة الأكثر استعداداً وحيوية وتوتراً. إن الأسباب الرئيسية لسقوط الدول والأمم والحضارات هي: وجود قيـــادة ظالمـــة وقاعدة ساكنة خانعة قابلة بالظلم، واجتماع الترف والحرمان، وتفـــشي الأخلاق الهابطة، وافتقاد التوازن بين الروح والمادة. وببـــساطة يعـــد

السقوط نتيجة منطقية لمخالفة شروط الاستخلاف[119].

وفي ذلك أورد ابن شيبة، وأبو الشيخ بن حيان، وابن مردويــه: عن علي -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، مــا من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت مــن معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهــم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت مــن طــاعتي ثــم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي، إلا تحولت عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من عذابي"[120].

<u>ثانياً: آجال الحضارات مقدرة كآجال الأفراد:</u>

من قوانين الله السارية في خلقه أن لكل مخلوق أجلاً، وأن لكل حادث نهاية، وهذه الآجال محددة ومقدرة، سواء أكانت آجالاً للأفــراد أو الشعوب أو الجماعات، وإذا كانت هذه الآجال ترى بوضوح بالنسبة للأفراد، فإن للأمم والحضارات آجالاً مؤقتة كذلك، ولكنها قد تطــول

---

[119] خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. ص ٢٥٩-٢٦٦. وانظر الآيات في: الأنفــال: ٥٣، هود: ٨، الحجر:٤-٥، ٢٤، الأعراف: ٣٤، آل عمران: ١٧٨، النحل: ٦١، والرعد:١١، والبقرة: ١٣٤ و ٢٨٦، غافر: ٢٩، الأنعام: ١٢٩و ١٤٧، الإسراء: ١٦.

[120] – الصعيدي، عبد الحكم عبد اللطيف: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية. القاهرة، ط١، ١٩٩٦.. ص٥٠.

أكثر من آجال الأفراد، حيث يمتد أجل الأمة عدة أجيال، ومع هذا فإن هذه الآجال كما لا يُقَرِّبُها الاستعجال، لا يُؤَخِرُها الاستبطاء والإمهال، وإذا كانت العلل الصحيحة والأمراض الجسمانية علامات تنذر بقرب آجال الأفراد، فإن ظلمات المعاصي وعلل الانحراف عن منهج الله هي من أكثر الأسباب تعجيلاً لحياة الأمم والشعوب، فهي مقدمات تستتبعها نتائجها استتباع اللزوم والحتم، وفي ذلك يقول تعالى:

((وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)) الأعراف ٣٤.

((مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)) الحجر ٥، المؤمنون ٤٣.

((...لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ))

يونس ٤٩.

((وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)) النحل ٦١.

((...لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)) الرعد ٣٨.

((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ)) الروم ٨.

((مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ)) الأحقاف ٣.

((إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)) نوح ٤.

((وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ...)) آل عمران ١٤٥.

((وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا)) الكهف ٥٩.

((وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ)) الحج ٤٧-٤٨.

((وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ)) (العنكبوت ٥٣-٥٤)[١٢١].

ثالثاً: الثراء الفاحش مع التحلل والابتذال ونكران النعمة:

يعتبر الثراء الفاحش من الانغماس في الملذات والشهوات إحدى الآفات الهامة التي تنخر في عظام المجتمع، وتفت في عضده، وتمزق أوصاله، ومما يزيد الطين بلةً، ويجعل في النهاية أن يصحب ذلك الثراء ألوان من التحلل والابتذال، والنصوص القرآنية متوافرة ومتضافرة لبيان هذا التلازم العجيب، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

((وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا)) الإسراء ١٦.

((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)) الأنعام ١٢٣.

((وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟

---

[121]-انظر، الصعيدي: حضارات. ص 37-٣٩.

حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)) يونس ٨٨.

((وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ * إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ)) ص ٢١-٢٣.

((لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ)) سبا ١٥-١٧.

((إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى

ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ)) القصص ٧٦-٧٧.

فمن الملامح العامة التي تشترك فيها تلك الحضارات البائدة ذلك التناقض الغريب، والذي يتمثل في تحقيق فائض رهيب من الأموال التي يتم جمعها بالعسف والجور، ومع هذا فإنها لا توجه وجهتها الصحيحة، بل إنها تنفق في أمور هي التفاخر بعينه، من نحو تخليد أشخاص الظالمين؛ ترسيخاً لمبدأ عبادة الفرد، وإقامة التماثيل الضخمة والأنصاب المختلفة من أهرامات ومسلات، وتختار لها الأماكن الاستراتيجية الهامة، كل هذا بدلاً من أن تنفق في وجوه الخير ومسح البؤس عن جميع المطحونين[122].

ومن أمثلة نكران النعمة كذلك، بنو إسرائيل عندما طلبوا من موسى -عليه السلام- أن يدعو ربه أن يجعل طعامهم البقل والثوم والبصل، وقد كان طعامهم من قبل المَنّ والسلوى[123]، وسجل القرآن عليهم تلك الواقعة بقوله: ((وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا

122 -الصعيدي: حضارات. ٤١-٤٣.

123 -المن: نوع من السكريات الشهية. والسلوى: هي لحوم الطيور.

ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)) البقرة ٥٧.

فما كان منهم إلا التمرد على هذه النعمة ((وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَستبدلون ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بالذي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بغضب مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يكفرون بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ويقتلون ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ)) (البقرة ٦١)[124]. وجاء في سورة النحل:

((ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣))

---

[124] -الصعيدي: حضارات. ص ٤٠-٤١.

رابعاً: الغرور الفكري والمادي:

يعتبر الغرور الفكري والمادي أحد العوامل التي تعجل باندثار الحضارة، فعندما تغتر الأمة بعلمها ومخترعاتها وما أحرزته من سبق وتقدم فإن ذلك يصرفها عن هداية السماء، ويصرفها عن اتباع الرسل، يقول الله تعالى: ((فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)) غافر ٨٣.

((ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ)) المؤمنون ٤٤.

كما يسجل لنا القرآن لوناً آخر من التمرد الفكري على الوالدين والتبرم بدعوتهما الخيرة الصالحة فيقول الله تعالى: ((وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ)) الأحقاف ١٧-١٨.

فتكون النتيجة الحتمية لهذا الغرور الفكري وقوع الناس في عبادة

الفرد تحت أي لون أو أي مسمى، كالزعامة أو العبقرية، ثم السير على غير هدى، وحلول العذاب والمؤاخذة في النهاية.

إن الغرور الفكري والمادي لا يؤثر فقط على الصعيد الشخصي، وإنما يمتد تأثيره إلى المجتمع كله بل ويعد مؤشر لا على الفرد بل على ضعفه وانحطاطه. وفي ذلك يرى "مالك بن نبي" إن تطور مجتمع ما على أية صورة هو مسجلاً كماً وكيفاً في شبكة علاقاته الحضارية، وعندما يرتخي التوتر في خيوط هذه الشبكة تصبح قواها عاجزة عن القيام بالنشاط الاجتماعي المشترك بصورة فعالة فذلك علامة على أن المجتمع مريض وأنه ما ض إلى النهاية، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد والأشخاص، ويتمثل وجوده فيما يُصيب **"الأنا"** عند الفرد من تضخيم فينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية. وعند ذلك تنعكس الحياتان النفسية والاجتماعية على بقية نواحي الحياة الأخرى فتفسد جميع العلاقات في الأمة، ففي العلاقات الشخصية تصاب الذوات الفردية بالتضخم فتفشل الإرادة ويفتقد الإخلاص وتنتشر الأنانية ويصاب الإنسان **بالكمال المزيف** وهو أن يصبح يشعر بوجوده أكثر مما هو في الواقع، فيظن أنه محور العالم والتاريخ يدور حوله وأنه ملئ سماع الناس وأبصارهم وأنه يجيد معرفة كل شيء وأنه رمز التقدم والتحضر، وغير ذلك من أحلام النفوس المريضة. ثم تنتقل العدوى من العلاقات الشخصية إلى العلاقات الاجتماعية فيصير العمل الجماعي أمراً صعباً أو مستحيلاً، إذ يكثر التنازع والشقاق والاختلاف ويصعب الاتفاق والاتحاد مع المجتمع إلا ما ندر، فيتفشى الظن وتذهب القوة الروحية، وفي العلاقات وفي العلاقات الثقافية والعقيدة، ويكثر الجدل والقيل والقال لا

للعمل وإنما لأغراض ذاتية ونفسية، ويبدو النقاش والمراء لا لإيجاد حلول للمشكلات القائمة والمطروحة على الأمة وإنما للعثور على أدلة وبراهين لإسكات الخصم، وحينئذ لا يتوصل إلى حل للمشكلات، لا لفقر في الأفكار والمعلومات، واستحالة الحلول لسباب خارجية، ولكن لسباب داخلية تكمن في الإنسان الذي لم يعد سوياً في هذه المرحلة أي مرحلة الانهيار والتدهور الحضاري، ويصبح الاهتمام في هذه الفترة منصباً على قضايا لا تقدم ولا تؤخر في حياة الأمة، ولعل هذا ما يشبه ما كان عليه فقهاء المسلمين في فترة الانحطاط الحضاري للأمة الإسلامية، حيث كان أكبر اهتمامهم البحث في جنس الملائكة والتوضؤ من وطء البهيمة، وفي الوقت نفسه لا يهتمون بمناقشة المشكلات التي يثيرها نمو المجتمع"[١٢٥].

وفي هذا الصدد يعلل "أبو الأعلى المودودي" في كتابه "نحن والحضارة الغربية" أسباب سقوط حضارة الإسلام في الهند بفساد القلة من أتباع التابعين الذين لم يكونوا على شيء من خصائص الفاتحين الأولين، حيث فتر إيمانهم واسترخى الحماس الإسلامي في نفوسهم، وغلب عليهم حب المغانم المادية وطالبوا الناس بطاعتهم بدل طاعة الله، فكانت النتيجة أن ظهرت الحركة الباطنية وبقي السواد الأعظم من أهل شبه جزيرة الهند على غير الإسلام رغم وجود الإسلام في البلاد قروناً عديدة[١٢٦].

خامساً: فساد نظام الحكم وموقف المحكومين:

(أ): فساد نظام الحكم:

---

[125] –بن نبي: ميلاد مجتمع. ص ٣٩–٤٣. وانظر، هيشور سنن القرآن. ص ١٢٩–١٣٠.

[126] –هيشور: سنن القرآن. ص ١٣٨.

إن النتيجة الطبيعية للترف والتحلل من القيم في ظل الغرور بكل معانيه هي وقوع الأمة في مستنقع عبادة الفرد، وتأليه البشر، فينتقم الله من ظالم بظالم، ثم يأخذ الجميع أخذ عزيز مقتدر، والقرآن الكريم يقص علينا جانباً من تلك الوقائع، فيقول الله تعالى:

((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ)) القصص ٣٨-٤٢.

((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ)) غافر ٣٦-٣٧.

((فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ))

(النازعات ٢١-٢٦)[127] .

(ب): كثرة الاختلاف واختلال التوازن بين الحاكم والمحكوم:

لقد خلق الله تعالى الناس لكي يعبدوه. وتقوم العبادة على **توازن** بين الأخذ والعطاء لتحقيق الانسجام الحيوي النشيط والحركي، ولن تستقيم أمور الإنسان، فرداً وجماعة، إلا بتحقيق **التوازن** في كافة المجالات، التوازن السياسي، والتوازن القيمي، والتوازن الاجتماعي الاقتصادي، وغير ذلك من أنواع التوازن. **ففي مجال التوازن السياسي** مثلاً، يؤكد القرآن على ضرورة التوازن السياسي بين **القيادات** و **القواعد**، فهو لا يعلق المسؤولية على تلك **القيادات** فحسب، وهي تمارس جرمها وفجورها وترفها وطغيانها وأخلاقياتها الهابطة (غافر ٢٩، الإسراء ١٦-١٧). إنّما هي **القواعد** التي أعانتها في البدء على الوصول، ثمَّ تعينها بتأييدها المعلن أو الضمني، مادياً أو أدبياً أو فكرياً أو أخلاقياً أو بسكوتها على مواصلة السير بالجماعة باتجاه البوار. ومن ثمَّ يصدر القرآن الكريم تحذيراته إلى هذه القواعد من أن يتبلد وعيها، ويتجمد حسها الجماعي، فتنساق في مجرى **الطاعة والاندماج** في مسار السلطة (الأعراف ٣)، حيث لا تستطيع حتّى أن تقول "لا" بل إنها ــ أكثر من ذلك ــ تقر في سرائرها هذا الطغيان

[127] الصعيدي: حضارات. ص ٤٥-٤٦.

الذي تمارسه السلطة (الأنعام ١٢٩)، ولا تستطيع أن تجد في نفسها أي مبرر للرفض أو المقاومة. ومن ثمَّ تجد الجماعة نفسها وقد غفلت عن أهدافها وقيمها ومطامحها؛ لأنها لم تدع مسافة كافية بينها وبين السلطة للرؤية والنقد والتمحيص والرفض والمقاومة، بل اقتربت منها رغباً ورهباً، واندمجت بها فأصبح محتوماً أن تتحمل معها المسؤولية، حتّى ولو لم تحصل باندماجها هذا إلا على الفتات، وأحياناً على الاحتقار والازدراء والصفعات. وسينزل عقاب الله تعالى على الجميع قيادات وقواعد (سبأ ٣٤-٣٥، النحل ٣٤، القصص ٧٨). **وفي مجال التوازن القيمي**: يقدم لنا القرآن الكريم صيغة للنشاط البشري على الأرض تتميز بالتوازن والتداخل والتكامل بين قيم الروح وقوى المادة (نفخة الروح + قبضة التراب)، وأن أي خلل في هذا التوازن الذي يؤكده القرآن ويدعو إليه كشرط أساسي للاستخلاف، سيؤدي ـ بالضرورة ـ إلى تفكك وانحلال الفرد والجماعة وتمزقهما وتشتتهما، الأمر الذي يقود، بلا ريب، إلى تأزم في الفعالية البشرية، وبالتالي في تدفق معطياتها الحضارية، وهو ما سيؤدي إلى انتكاسة قاسية (آل عمران ١٠٣-١٠٥، الأنفال ٤٦).

إن مسألة التوازن عميقة في نسيج القرآن الكريم، وإن إحدى كبريات البدهيات الدينية في القرآن الكريم، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً، طعاماً وشراباً وجنساً (البقرة ١٦٨، البقرة ٦٠، الأنعام ١٤٢، الأعراف ٣١-٣٢، الأنفال ٦٩) ، وأن التحريم مسألة استثنائية محدودة المساحة، حتّى إن القرآن الكريم ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي، افتراء على الله تعالى (الأعراف ٣٣، يونس ٥٩، الأنعام ١٤٨، النحل ٣٥، الأنعام ١٤٠،

النحل ١١٦، المائدة ٨٧، التحريم ١)، ويكون من وظائف الأنبياء والرسل إعادة الأمور إلى نصابها وتصحيح التزوير (المؤمنون ٥١، طه ٨١).

وفي ضوء ما تقدم نجد أن القرآن الكريم يطرح قاعدة التوازن العريضة لكي يحمي التجربة البشرية في العالم من التفكك والتشتت والدمار، ولكي يمنح الإنسان، فرداً وجماعة، الطريق الذي ينسجم تماماً مع تكوينه من أجل التقدم صعداً لأداء مهمته الأساسية في الأرض، وهذا بالمقابل يقدم لنا على المستوى التاريخي أحد الأسباب الكبرى التي تفسر نشؤ الحضارات ونموها من جهة، وتوقفها وتحللها وانهيارها من جهة أخرى[١٢٨].

ومن الحقائق الهامة التي يجب التنبه إليها، هي أن فساد نظام الحكم لا تقع مغبتها على الحكام وحدهم، وإنما يشاركهم في مغبتها وحمل تبعتها جماهير المحكومين، والقرآن الكريم يوجه لنا في سياق توجيه التهم من كل فريق إلى الآخر يوم القيامة على نحو تتضح لنا من خلاله تلك الحقيقة، وذلك على النحو التالي:

موقف المحكومين بين يدي الله:

يتمثل في محاولة التنصل من أية مسئولية، وإلقاء الوزر كله على القادة والحكام على نحو ما تبينه الآيات التالية. يقول تعالى:

((وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا

128 -خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ. ص ٢٦٥-٣٠١.

نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ)) غافر ٤٧.

((وَمَا أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ)) الشعراء ٩٩.

((وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)) الأحزاب ٦٧-٦٨.

((... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)) سبأ ٣١.

((وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)) سبأ ٣٣.

موقف السادة والحكام يوم الحساب:

يسجل القرآن أن موقف المستضعفين وتنصلهم لا مبرر لـه ولا

مسوغ، وأنه لا يعدو أن يكون محض مراوغة؛ ذلك لأن موقفهم في الدنيا كان موقف لؤم وتخاذل لا يصدر إلا عن نفوس سقيمة مريضة، وذلك ما تظهره الآيات القرآنية التالية:

((قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ)) سبأ ٣٢.

((وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ * قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ)) الصافات ٢٧-٣٢.

ففي الوقت الذي يقول فيه المستضعفون أنكم كنتم تلاحقوننا في كل وقت، يرد عليهم المُضِلون: إنكم مغالطون، فلم يكن عليكم تسلط ولا ضغوط، وإنما أنتم مستعدون لتجاوز الحدود وانتهاز الفرص.

و في هذا الصدد أورد ابن كثير في تفسير سورة الأنفال أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "**إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**"[129].

[129] -انظر ما تقدم في، الصعيدي. حضارات. ص ٤٦-٤٩.

سادساً: الظلم: (انظر سنة الله في الظلم والظالمين).

الظلم هو تجاوز الحد، ووضع الشيء في غير محله، ولذلك يكون للجائر والظالم أموال كثيرة؛ لأنه يتوصل إليها بطرق غير مشروعة. والظلم في حقيقته لا يعدو أن يكون انتكاسة لمكارم الأخلاق، وصورة من صور قلب أوضاع الأشياء في أي مجتمع يتصف به، فيحل عليهم العقاب من الله"[130]. ولذلك يعد الظلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات، فهو يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة، وعلاقة الإنسان مع الله ومع نفسه ومع غيره، وعن هذا تنبثق حالات وظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية كافة، قال تعالى: ((ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾)) الروم ٤١"[131].

ولكن ما المقصود بالسقوط الحضاري في القرآن ؟

يقول "عمر فروخ" في كتابه "الإسلام والتاريخ" أن المقصود بالسقوط الحضاري من خلال القرآن ليس هو دائماً زوال الأمم من الوجود وفناء أفرادها من العدم، ولكن المقصود هو الانهيار الداخلي للمجتمعات وذهاب قوة الأمم وعزتها وهوانها على الأمم الأخرى، ذلك عندما تذوب في غيرها وتتمحي شخصيتها المعنوية والروحية، وهذا

130 - الصعيدي: حضارات. ص٤٩.

131 - هيشور: سنن الله. ص ٢٢٥-٢٢٦.

ما هو كائن في حياة الأمم التي سقطت حضارتها. والثابت في تاريخ الإنسانية أن الأمم التي شهدت تلك الإمبراطوريات والحضارات الغابرة لم ينقرض نجمها وينتثر كيانها البشري كلية، وإنما ضعفت واستكانت وغاب تأثيرها المباشر في مسرح الحياة الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فاستوعبتها حضارات أمم أخرى هي أشد وأبقى حتى صارت جزءاً منها لا ينفصل، وأنشئت على أنقاض كيانها الحضاري حضارات جديدة[132].

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن انهزام الأمم يبدأ من الداخل بالتفكك نتيجة لكثرة الاختلاف، وما يتبع ذلك من استجابة للمؤثرات الخارجية فتنشأ ظاهرة خطيرة جداً أطلق عليها "مالك بن نبي" **القابلية للاستعمار**، والذي يعتبره أهم عوامل هزيمة المسلمين في العصر الحديث[133].

سابعاً: ضعف الفكرة الدينية(العقيدة):

ولعل من أبرز معالم الانحطاط هو تناقص الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية بمجرد أن تدخل الحضارة منعطف العقل، حيث تسفر الغريزة عن وجهها تماماً وتعود الأشياء كما كانت في مجتمع منحل، فلا يجد المسلم المريض شعوراً بسيطرة الفكرة الدينية على غرائزه إلا داخل المسجد حيث الوعظ والتجرد، وما أن يخرج إلى الشارع ثانية حتى تتلاشى تلك الأحاسيس فيتقمص شخصية نقيضه لا تتفق مع واقعه وعقيدته، فيؤثر سلباً في المجتمع ويحدث التراجع والتدهور[134].

132 -هيشور: سنن القرآن. ص ٢١٩.

133 -انظر، بن نبي، مالك: شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، دمشق، ط٦، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ص ١٥٦-١٦٠.

134 -بن نبي: ميلاد مجتمع. ص ١٠٤-١٠٥.

<u>التجـــــدد الحضـــــاري والمستقبل في المنظور الإسلامي:</u>

بالرغم من كل ما تقدم، هل يمكن للحضارة أن تجدد نفسها ؟

١-تجديد العقيدة (الفكرة) الدينية:

إن إمكانية التجدد الحضاري في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ أمر ممكن حدوثه، ولكي يحصل هذا التجدد لا بد من تجديد الفكرة الدينية (العقيدة) وإعادة الطاقة الحيوية لها التي تمكنها من تفعيل دورها المؤثر والتربوي من أجل استعادة النشاط الاجتماعي السوي والعمل المتكامل على قاعدة "الفرد للمجموع – والمجموع للفرد"[١٣٥].

٢-العبودية الخالصة لله:

لا يمكن الوصول إلى إعادة تفعيل الطاقات إلا عندما يحقق الإنسان **العبودية الخالصة لله** ويتحرر من كل عبودية في الأرض لبشر، أو لقوة مادية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها..، فيتحرر بذلك من ضغط الضرورة وينطلق إلى الآفاق العليا الجديرة بالإنسان[١٣٦]. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم"[١٣٧]. ووفقاً لذلك لا يكون التجدد الحضاري هو الوصول إلى القوة المادية أو القوة الحربية وحسب، وإنما ما لم يترافق ذلك مع عودة القيم الروحية المتمثلة بوحدانية العبودية لله فإن الأمر الأول سيتحول إلى طغيان في

135 -بن نبي: ميلاد مجتمع. ص ١٠٤-١٠٧.

136 -قطب، محمد: حول التفسير الإسلامي للتاريخ. جدة، ط٣، (د.ت). ص ١٥٣-١٥٤.

137 -بن تيمية: العبودية. تحقيق وتعليق: د. محمد زينهم محمد عزب، القاهرة (د.ت). ص ٣٦.

الأرض بغير الحق، أو أداة للفساد والظلم، وكذلك سيتحول الأمر الثاني إلى طغيان وتجبر وعدوان على الناس بغير الحق واستلاب الأرض والأقوات من أصحابها وإذلالهم[138].

فمهمة الإسلام دائماً أن يدفع بالحياة إلى التجدد والتطور والرقي، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع[139]؛ لأن الإسلام ليس شعائر تؤدى فحسب، ولا دعوة أخلاقية فحسب، كذلك هو ليس مجرد نظام للحكم، أو نظام للاقتصاد، أو نظام للعلاقات الدولية، إن هذه كلها جوانب منفردة من جوانب الإسلام المتعددة ولكنها ليست هي كل الإسلام. إن الإسلام حركة إبداعية خالقة تستهدف إنشاء حياة إنسانية غير معهودة قبل الإسلام، وغير معهودة في سائر النظم الأخرى التي سبقت الإسلام أو لحقته .. تلك الحركة الإبداعية الخالقة تنشأ عن تصور معين للحياة بكل قيمها وكل ارتباطاتها، تصور جاء به الإسلام ابتداء وهي حركة تبدأ في أعماق الضمير ثم تحقق نفسها في عالم الواقع، ولا يتم تمامها إلا حين تتحقق في عالم الواقع. وحين تستقر العقيدة الإسلامية في الضمير البشري استقراراً حقيقياً، فإنه يستحيل عليها أن تبقى ساكنة، ويستحيل أن تظل مجرد شعور وجداني في أعماق الضمير. إنها لا بد أن تندفع لتحقيق ذاتها في عالم الواقع، ولتتمثل حركة إيجابية إبداعية في عالم المنظور، حركة تبدع الحياة كلها، وما ينشأ عنها من ألوان وأطياف وتعمير[140].

إن هذه الصورة التي يرسمها الإسلام للحياة لا يمكن تحقيقها

---

138 -قطب، محمد: حول التفسير. ص ٢١٣-٢١٤.

139 -قطب، سيد: في التاريخ فكرة ومنهاج. القاهرة، ط١١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. ص١٦.

140 -قطب، سيد: في التاريخ. ص ١٦-٢٣.

بمجرد قراءة القرآن تجويداً وترتيلاً، ولا بمجرد تسبيح الله بكرة وأصيلا، إنما هي تتحقق بترجمة المدلولات القرآنية إلى واقع عملي في حياة البشرية، وبترجمة التسبيح إلى حركة وجدانية تتحول إلى حركة منظورة في عالم الواقع، وبترجمة المشاعر إلى صور تعبيرية ليس الهدف منها مجرد التعبير، ولكن ما وراءه من حركة وتطوير"[١٤١].

٣-تكتل المسلمين ونبذ التعصب:

أما الجانب الآخر في موضوع التجدد الحضاري فيتمثل في **تكتل المسلمين ونبذ التعصب**، فالتكتل الإسلامي لا يعني التعصب في أي من معانيه .. إن الإسلام هو الضمانة الوحيدة في هذا العالم اليوم لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له في العقيدة، فهو وحده الذي يعترف بحرية العقيدة ويرعاها، في عالم الواقع لا في عالم النصوص. وهو وحده الذي يمكنه أن يضمن السلام للبشرية كلها في ظلاله، سواء من يعتنقونه ومن لا يعتنقونه ..، إنه النظام العالمي الوحيد الذي تستطيع جميع الأجناس، وجميع العقائد أن تعيش في ظله في أمن وسلام"[١٤٢].

٤-الابتعاد عن الاختلاف والبحث عن القواسم المشتركة:

إن مسائل الاتفاق في الأمة أكثر من مسائل الاختلاف وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نقتدي برسوله الكريم محمد ﷺ وذلك في قوله:

((لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن

---

141 -قطب، سيد: في التاريخ. ص ٢٥-٢٦.

142 -قطب، سيد: في التاريخ. ص ٦٨.

كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾)) الأحزاب ٢١. ومما يحقق ذلك.

(أ): التعاطي مع الرأي الآخر:

ومما ينبغي الاقتداء به في الموضوع الذي نحن بصدده **التعاطي مع الرأي الآخر**، وهذا بالطبع لا يعني قبول ذلك الرأي أو الانطواء فيه، وإنما يعني تجاوز مسببات التصادم واقتناص العلاقة العامة لخدمة مبدأ الاجتماع في الإسلام. فقد كان النبي ﷺ يهادن المنافقين، ويقبل وجودهم في مسجده وجهاده، ويقبل مخالطتهم إياه ويؤدي ما عليه من واجب عام نحوهم مع علمه ﷺ بمواقفهم ومعارضتهم .. وهذا يدل على حرص الرسول الكريم ﷺ على وحدة الصف وتمتين الجبهة الداخلية، ولو بالصبر على المخالفين المنازعين[١٤٣].

(ب): البحث عن القواسم المشتركة:

والقواسم المشتركة مبدأ نهجه سيد هذه الأمة ﷺ منذ أن بعثه الله تعالى لإصلاح هذا العالم .. وكان يعامل به كافة أجناس البشر وليس المسلمين فقط، واستطاع به أن يعامل كفار قريش ومشركي العرب وأهل الكتاب ، فصارت هذه المواقف أخلاقاً شرعية وسنناً يقتدى بها لكي يطوع المسلمون أنفسهم على قبول الآخر ضمن أُطر سننية، وضوابط شرعية من أجل إبراز عالمية الإسلام وشمول نظرته للآخرين[١٤٤]. وفي ضوء ذلك تكون مسألة إيجاد قواسم مشتركة بين

---

[143] -المشهور، أبو بكر العدني بن علي: إحياء لغة الإسلام العالمية وتجديدها من خلال تأصيل البدائل وتحديث الوسائل. حضرموت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ص ٩٣-٩٤.

[144] -المشهور: إحياء ص ٩٥.

أبناء الأمة، من ثوابت التجديد الحضاري الذي يقوم على أساس الاستخلاف، وذلك لكي تستقيم -كما يقول المشهور- المعادلة الباهتة المتمثلة في قيام بعض المسلمين بجعل جسور الصداقة بينهم وبين الكفار أقرب بكثير من جسور المعاملة بين المسلمين أنفسهم"[١٤٥].

لقد طغى التعصب بين المسلمين، وهو ما سماه الرسول ﷺ "داء الأمم"، حيث قال عليه الصلاة والسلام: **"أصابكم داء الأمم، قالوا: يا رسول الله وما داء الأمم ؟، قال: البغضاء والحسد، لا أقول حالقة الشعر ولكنها حالقة الدِّين ألا أدلُّكُم على شيء إذا فعلتُمُوه تحاببتم أفشوا السلام بينكم"**. والسلام من معانيه إحياء مبدأ القواسم المشتركة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **"من أحيا سُنَّتي عند فساد أمتي فلهُ أجر مئة شهيد"**.[١٤٦]

(ج):التغيير الذاتي والإعداد الذاتي:

وقد حدد القرآن الكريم سُنتين لموضوع التجدد الحضاري وهما: **التغيير الذاتي، و الإعداد الذاتي**، وبدون الأخذ بهاتين السنتين لن تبدأ حركة التاريخ مسيرتها ولن تستأنف الحضارة دورها في التعمير وتحقيق الاستخلاف والوصول إلى التمكين والدفع بالأمة إلى المواقع الأمامية التي تجاوزتها فيها قيادات الأمم الأخرى، ذلك أن التغيير الذاتي يعني التغيير الداخلي للأنفس، وهذه هي القاعدة الأساسية في أي بناء حضاري جديد. قال تعالى:

((إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

---

[١٤٥] -المشهور: إحياء. ص ٩٥.

[١٤٦] -المشهور: إحياء. ص ٩٦-٩٧، ١٣٨.

بِأَنفُسِهِمْ)) الرعد١١ "[١٤٧].

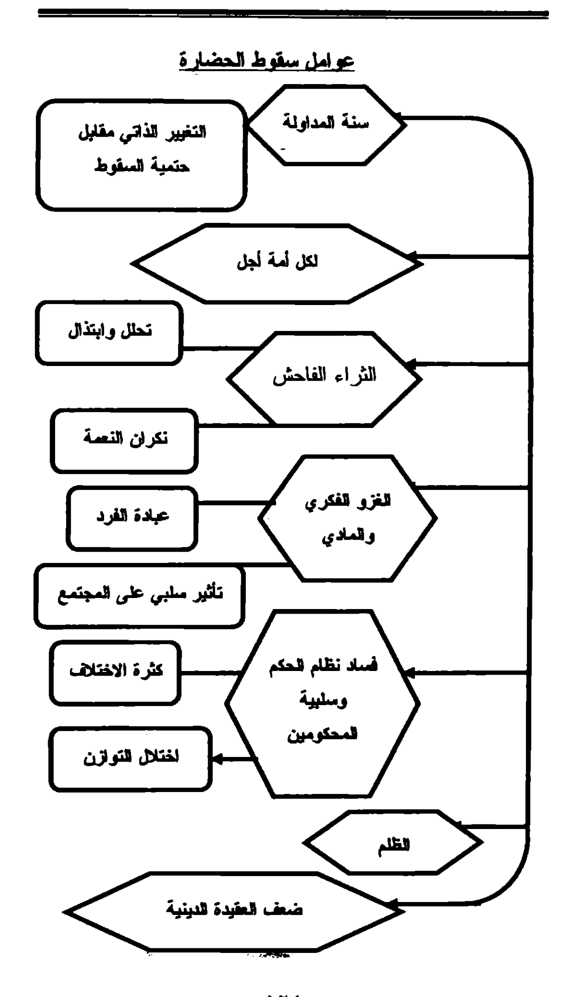
وهكذا فإننا عندما نقول **التجدد الحضاري**، فهذا لا يعني ميلاد جديد للحضارة بشكل دورة تاريخية حتمية، ولكن الأمر مرتبط بنهضة جديدة من بناء مادي قائم وبقايا عقائدية مشوهة يعيد حالة التوازن بين الخواء العقائدي المفقود وبين البناء العمراني الموجود، وهذا البعد –في الواقع– يعد رؤية إسلامية لا تحطم معنويات الإنسان ولكن تجدد الأمل في إمكانية الكينونة.

ووفقاً لذلك يمكن أن نقرر أن **المصير الحتمي** في ضوء سنن القرآن الكريم ليس مصيراً معتماً مبتوراً، لكنه مصير حركي (ديناميكي) متجدد، القول الفصل فيه للإنسان المسئول الأول عن تبعات أعماله؛ لأن الإنسان المسلم لا ينبغي أن يصطدم بعوائق العجز والصراعات، وإنما عليه أن يدمر تلك العوائق بتجديد الإيمان بأنه مستخلف في هذه الأرض وعليه يقع وزر التقهقر والانكماش الذي يقود إلى الانحطاط والتدهور والسقوط. وفي ضوء ذلك نجد أن مبدأ "**الحتمية المطلقة**" التي طرحتها الفلسفة الغربية تنفي تدخل الإنسان في عملية التغيير، وهو ما يرفضه المنظور الإسلامي، إذ جعل الإنسان هو مرتكز محور التحولات كافة باعتباره خليفة الله في الأرض.

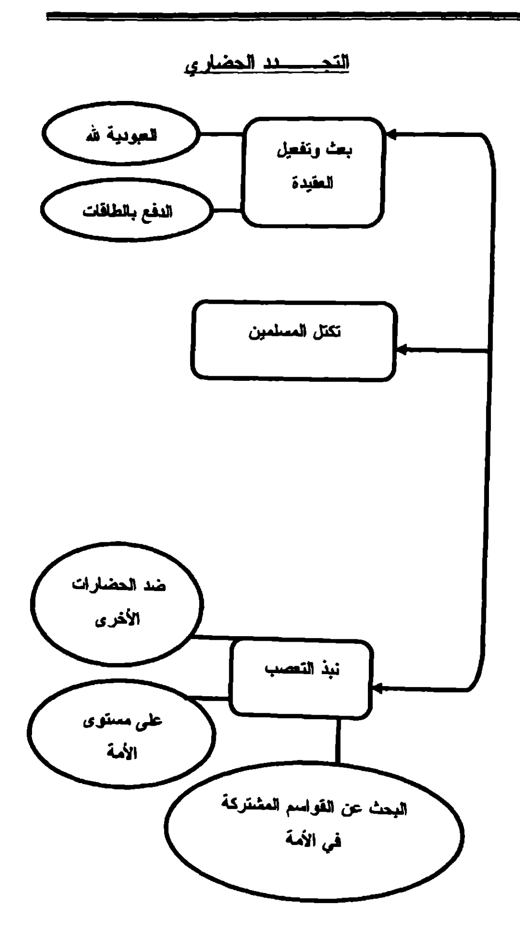
ونقدم فيما يلي ملخصاً توضيحياً لما تقدم:

---

[147] –هيشور: سنن القرآن. ص ٢٧٤.


عوامل سقوط الحضارة
سنة المداولة
التغيير الذاتي مقابل
حتمية السقوط
لكل أمة أجل
تحلل وابتذال
الثراء الفاحش
نكران النعمة
الغزو الفكري
والمادي
عبادة الفرد
تأثير سلبي على المجتمع
فساد نظام الحكم
وسلبية
المحكومين
كثرة الاختلاف
اختلال التوازن
الظلم
ضعف العقيدة الدينية

التجــــــدد الحضاري



٣- السـنن الربانيـة:

بالرغم من أن كل تقدم يدخل في نطاق السنن، إلا أن إفرادها هنا هو لفت انتباه لقوانينها، وآثارها، وأهميتها، وشموليتها لكل مفاصل الحياة. فبها قامت الحضارة، وبها تطورت، وبها تدهورت.

فقد شدد شيخ الإسلام "ابن تيمية" عن عمق ودراية بالفقه السنني، على ضرورة موافقة السنن وعدم التصادم معها؛ لأن الله ينتقم ممن يخالف دين الرسل. كما يقول أيضاً: " ومن نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ... وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل أتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم. فينبغي على الإنسان أن يُعوِّد نفسه على التفقه الباطن في قلبه، والعمل به، فهذا زاجر، وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأنها مما أمر بها الله ورسوله"[148].

ويقول "ابن القيم الجوزية" عن السنن: "هي محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والنجاح والخسران ... (فبها) عُرف الله وبها عُبد، وبها أُطيع، وبها تقرب إليه المتقربون، وبها نصر حزبه ودينه، وبها أرسل الرسل، وشرع شرائعه، وبها انتقل الناس إلى شقي وسعيد ... فالوقوف معها والالتفات إليها، والنظر إليها هو الواجب شرعاً، كما

---

148 -برغوث، عبد العزيز: "قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي والثقافة السُننية"، إسلامية المعرفة، ع ٤٤، السنة ١١، ربيع ١٤٢٧/٢٠٠٦م. ص ٨٢-٨٣.

هون الواقع قدراً ... فالدين على ذلك هو إثبات الأسباب وإنه لا دين إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها ... فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، ولا يتم إسلامه إلا بذلك"[١٤٩].

ولذلك فإن المجتمع الذي يتمتع بالثقافة السننية، هو الذي ينسجم عمله في مجال الاعتقاد والمعرفة والمنهج والاجتماع البشري والعمران الحضاري مع تلك السنن؛ لأن الثقافة السننية هي أسلوب الحياة وطرائق السلوك وانساق الوعي ومكونات الواقع الفردي والاجتماعي والحضاري المنسجم مع سنن الله سبحانه وتعالى. فقد ثبت أن قوة الحضارة الإسلامية وإبداعها في مختلف ميادين الوعي والمعرفة والعلم والفنون والهندسة والطب والعمارة والثقافة وغيرها، كان بسبب التزام علمائها ووعيهم بالسنن ودورها في الاستخلاف والإعمار والشهود الحضاري الذي أنيط بها"[١٥٠].

وقد عد الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان[١٥١] سبع عشرة سنَة من السنن الإلهية في ضوء القرآن والسنة، ووضع لكل سنَة عدداً من الفروع المرتبطة بها، فبلغ المجموع ما يقارب ثلاثمائة وثمانون سُنَةً. ومن السنن الرئيسة التي أوردها نختار ما يفيد موضوعنا، مع الأدلة القرآنية للأصول وبعض الفروع، وذلك على النحو التالي:

---

149 -برغوث: قضية السنن. ص ٨٣.

150 -برغوث: قضية السنن. ص ٦٦-٦٧، ٨٩-٩٠.

151 -انظر، زيدان، عبد الكريم:السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١-سنة الله في الأسباب والمسببات (قانون السببية):

السبب في اللغة: كل شيء يتوصل به إلى غيره. قال تعالى: ((إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾)) الكهف ٥٨.

وقوله سبحانه: ((وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا)) الطلاق ٢.

٢-سنة الله في اتباع هداه والإعراض عنه (قانون الهدى والضلال):

قال تعالى في سورة البقرة ٣٨: ((قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)).

وفي سورة النحل ٩٧: ((مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)).

وفي سورة النساء ١١٥: ((ومن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا)).

وفي سورة البقرة ١٢٠: ((وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)).

٣-سنة الله في التدافع بين الحق والباطل (قانون التدافع):

قال تعالى في سورة الأنفال ٣٦: ((إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)).

وفي سورة البقرة ٢١٧: ((وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَـا خَـٰلِدُونَ)).

٤-سنة الله في الفتنة والابتلاء (قانون الابتلاء):

قال تعالى في سورة الأنبياء ٣٥: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)).

وفي البقرة ١٥٥-١٥٧ ((وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾)).

وفي سورة البقرة ٢١٤: ((أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟

ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ)).

٥-سنة الله في الظلم والظالمين (قانون الظلم):

قال تعالى في سورة الأنعام ١٢٩: ((وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)). وفي الآية ١٣٥: ((قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)).

وفي سورة هود ١٠٠-١٠٢: ((ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ

عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾)). وفي آية ١١٧: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)).

(أي تبقى الدولة مع الكفر ولا تبقى مع الظلم).

٦-سنة الله في المتساوين والمختلفين (قانون التماثل والأضداد):

قال تعالى في سورة الأنعام ٦: ((أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ)).

وفي سورة المائدة ١٠٠: ((قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ

وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)).

وفي سورة البقرة ٢١١: ((سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)). وفي آية ٨٥: ((ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)).

وفي سورة الأحقاف ٢٦: ((وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)).

وفي سورة القلم ٣٥-٣٦: ((أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾)).

٧-سنة الله في الترف والمترفين (قانون الترف):

قال تعالى في سورة سبأ ٣٤-٣٦: ((وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾)).

وفي سورة الإسراء ١٦: ((وَإِذَا أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا)).

٨-سنة الله في الطغيان والطغاة (قانون الطغيان والطغاة):

قال تعالى في سورة هود ١١٢: ((فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)).

وفي سورة الفجر ٦-١٤: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ

عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾)).

٩-سنة الله في بطر النعمة وتغيرها (قانون بطر النعم وتغيرها):

قال تعالى في سورة النحل ١١٢: ((وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾)).

وفي سورة القصص ٥٨: ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ)).

وفي سورة سبأ ١٥-١٧: ((لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

وفي سورة الرعد ١١: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾.

١٠-سنة الله في الذنوب والسيئات (قانون الذنوب والسيئات):

قال تعالى في سورة الأنعام ٦ : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

وفي سورة النساء ١٢٣: ((مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)).

وفي سورة غافر ٤٠: ((مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)).

وفي سورة الشورى ٣٠: ((وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ)).

١١-سنة الله في التقوى والإيمان والعمل الصالح (قانون التقوى والإيمان والعمل الصالح):

قال تعالى في سورة الأنفال ٢٩: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)).

وفي سورة الطلاق ٢: ((وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا)).

وفي سورة النحل ١٢٨: ((إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)).

وفي سورة الأعراف ٩٦: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ))

وفي سورة النساء ١٤١: ((وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)).

١٢-سنة الله في الاستدراج (قانون الاستدراج):

قال تعالى في سورة القلم ٤٤-٤٥: ((فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾)).

وفي سورة الأعراف ٨٢: ((وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)).

١٣-سنة الله في المكر والماكرين (قانون المكر):

قال تعالى في سورة الأنعام ١٢٣: ((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)).

وفي سورة آل عمران ٥٤: ((وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)).

وفي سورة النمل ٤٨-٥١: ((وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾)).

وفي سورة الأنفال ٣٠: ((وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ)).

وفي سورة فاطر٤٢-٤٣: ((وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾)).

وفي سورة الرعد ٣٣-٣٤: ((بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾)).

١٤-سنة الله في طلب الدنيا والآخرة (قانون طلب الدنيا والآخرة):

قال تعالى في سورة الشورى ٢٠: ((مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)).

وفي سورة هود ١٥-١٦: ((مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي

ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)).

وفي سورة القصص ٧٦-٧٧: ((إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾)).

١٥-سنة الله في الرزق (قانون الرزق):

قال تعالى في سورة هود ٦: ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)).

وفي سورة العنكبوت ٦٠: ((وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)).

وفي سورة الذاريات ٥٨: ((إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾)).

وفي سورة العنكبوت ١٧: ((إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)).

وفي الختام نجد أن التفسير الإسلامي للتاريخ -كما يذكر "أبو شوك"- قد استقى ثوابته العلمية من الفكر الإسلامي القائم على قيم عقدية تختلف اختلافاً جذرياً عن المرتكزات الفكرية الغربية الخاصة بتفسير قضية الخلق والكون ودور العناصر الغيبية والمحسوسة في تحديد مسار التاريخ البشري. فلا غرو أن هذا المشروع بروافده المختلفة قد أفلح في تفنيد دعاوى تلك المدارس ودحض بعض

فرضياتها وحججها حول الواقعة التاريخية والمسألة الحضارية المرتبطة بخلق الإنسان وتطور معارفه الفكرية وأنشطته المكتسبة، وفي المقابل حاول أن يقدم بعض الأطروحات العلمية التي يمكن أن تسهم في تحقيق نتائج إيجابية في مجال البحث التاريخي عن دور الإنسان والقوى الغيبية في تحديد مسار التاريخ البشري ومعرفة العناصر التي شاركت أو مازالت تشارك في صياغته حسب ظروف الزمان والمكان[١٥٢].

---

[152] أبو شوك: "علم التاريخ .." ص ٥٦.

الملاحق

الملحق (١): أسئلة للمساعدة على الفهم.

الملحق (٢): مصطلحات.

الملحق(٣): نماذج من تطبيقات الطلاب.

الملحق ١

أسئلة لتحقيق مزيد من الفهم

س: هناك تشابهات تصل أحياناً إلى حد التماثل في أطروحات الفلاسفة كما مر بنا في النظريات السابقة. حدد أي من الفلاسفة يتشابه في طرحه مع الآخر، ثم بين من تأثر منهم بالآخر وذلك في ضوء الأفكار التالية:

١-الدول العامة الاستيلاء، العظيمة المُلك، أصلها الدين، أما من نبوة أو دعوة حق.

٢-للدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص.

٣-الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وهي مؤذنة بفساده.

٤-يرى اشبنغلر أن اجتماع المحاربين في قبيلة أو جنس أو خليط من الشعب بقصد الدفاع ضد قوة خارجية معادية هو البذرة الأولى للدولة، وهو يرى بذلك أن أصل الدولة هو الحرب.

****

س:ماذا يقصد اشبنجلر "**بالتشكل الكاذب للحضارة**" ؟

س:ما هو مفهوم "**المصير**" عند اشبنجلر ؟

س:انتقد توينبي **التقسيم الثلاثي** الغربي للتاريخ، كما انتقد علماء التفسير الإسلامي للتاريخ ذلك أيضاً.

أ-ما هي نظرة كل منهما لذلك ؟

ب-ما هو وجه الشبه والاختلاف بينهما ؟

س: وضح أوجه التشابه والاختلاف بين الفلاسفة فيما يخص **"وحدة الدراسة التاريخية"** ؟

س: قارن بين "فيكو" و "توينبي" فيما يتعلق بنظرة كل منهما لليهود والحضارة اليهودية ؟

س: اعتبر توينبي أن الدين وراء تطور أي حضارة واستمرارها وسقوطها ، قارن ذلك مع التفسير الإسلامي للتاريخ ؟

س: يرى توينبي أن الحضارة لا تسقط بغزو خارجي وإنما تسقط بسبب انهيارها الداخلي، قارن ذلك مع ما جاء في نظرية ابن خلدون، وفي التفسير الإسلامي (القرآني) للتاريخ ؟

س: جعل توينبي من الإبداع سبباً في تطور الحضارة وفي سقوطها، قارن ذلك مع التفسير الإسلامي للتاريخ ؟

س: اعتبر اشبنغلر أن اقتران المذاهب اللادينية بالتوسع الخارجي من مظاهر التدهور والاضمحلال، قارن ذلك مع رؤية توينبي لتدهور الحضارة واضمحلالها ؟

س: استنبط من السنن القرآنية أحكاماً عامة بطريقتك الخاصة ؟

س: قارن بين أسباب سقوط الحضارة عند كل من التفسير الإسلامي (القرآني) للتاريخ، ابن خلدون، اشبنغلر، توينبي، ثم وضح أوجه التشابه والاختلاف، ثم بين أيها أرجح في نظرك ولماذا ؟

س: هل يوجد تشابه بين مصطلح "**المدنية**" عند اشبنغلر و مصطلح "**العمران**" عند ابن خلدون ؟

س: من هم فلاسفة عصر التنوير وبماذا تميزوا ؟

س: ما المقصود بفلسفة التاريخ، ومن أول أسسها، ومن أول من أطلق عليها هذا الاسم ؟

س: ماهي القوانين الرئيسة التي تقوم عليها النظرة الماركسية للتطور التاريخ ؟.

س: ما لمقصود "بالروح" عند هيجل، ولماذا ربط بين الــروح وبــين الدولة ؟

س:ما هي وظيفة الدولة في نظرية هيجل ؟

س: ما دور الفكرة في نشأة الحضارة وتدهورها ؟

س: ما مفهوم الاستخلاف، وما دوره في صنع حركة التاريخ ؟

س: ما هي المزايا الإيجابية للمداولة ؟ وهل هي ميزة إسلامية ؟

س: كيف نظر التفسير الإسلامي للتاريخ لموضوع التجدد الحضاري، وماذا قصد به ؟

س: هل هناك مسئولية مشتركة بين الحاكم والمحكوم فــي موضــوع التدهور والانحطاط في التفسير الإسلامي للتاريخ ؟

س: ما هو دور الفرد في تدهور المجتمع في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ ؟.

الملحق ٢

مصطلحات

اختراع:

هو إحداث الشيء لا عن شيء، وهو اختراع الشيء دفعة. (المعجم الفلسفي. ص ١٢).

استحالة:

هي الحركة الكيفية والانتقال من كيفية إلى كيفية أخرى تدريجياً. (المعجم الفلسفي. ص ١٦).

إسلام، وإيمان:

لغة هو الطاعة والانقياد، ويطلق على الأعمال الظاهرة كما في الحديث الشريف الخاص بأركان الإسلام (شهادة أن لا إله إلا الله ....)، أما الإيمان فمن معانيه التصديق القلبي والإقرار والعمل، وقيل من صدق بقلبه وشهد بلسانه ولم يعمل فهو فاسق، ومن شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر. ولا يوجد إسلام بلا إيمان ولا إيمان بلا إسلام. (المعجم الفلسفي. ص ١٩-٢٠، ٣٨-٣٩).

اشتراكية:

هو المذهب الذي يقول بأن العمل أساس التملك، وأن الملكية وظيفة اجتماعية، ويدعو إلى ملكية المجتمع لوسائل الإنتاج وإشراف الدولة على النشاط الاقتصادي وتوجيهه بما يكفل رفع التناقضات الاجتماعية. (المعجم الفلسفي. ص ٢١).

أيديولوجية:

ويقال لها "أفكارية" كذلك، وتقوم على ممارسة تحليل الأفكار إلى عناصرها الحسية، وبالتمرين يستطيع المرء أن يكتسب خبرة التمييز بينها، ويستطيع التعامل مع الواقع بحسب الأيديولوجية التي تربى عليها. (المعجم

الفلسفي. ص ٣٧).

بداهة:

هي المعرفة الحاصلة ابتداء من النفس لا بسبب الفكر، وذلك كقولك بأن الواحد نصف الاثنين. (المعجم الفلسفي. ص ٤٠).

براجماتية:

هي الفلسفة العملية وتختص بدراسة الواقع لا المجرد. ويهتم الفيلسوف العملي بالمدرك وليس بالمتصور، أي أنه يهتم بالأشياء ولا يحلق في الفضاء. (المعجم الفلسفي. ص ٤٢).

تربية:

هي تبليغ الشيء إلى كماله. (المعجم الفلسفي. ص ٥٣).

تسامُح:

هو التساهُل. وتقول تسامح في حقه أي احتمل انتقاصه، والسماح في الرأي هو الموافقة على إعلانه وإن كان معارضاً، والسماحة في السياسة هي اللين، والمسامحة المساهلة وكثرة السماح. (المعجم الفلسفي. ص ٥٤).

تصيير:

تصيير الشيء شيئاً إما بحسب الذات كتصيير الماء حجراً وبالعكس. (المعجم الفلسفي. ص ٥٧).

تضاد:

التقابل بين أمرين وجوديين بحيث لا يتوقف تعقُّل كل منهما على الآخر، والفرق بين الضد والنقيض أن النقيضين لا يجتمعان لكن يرتفعان كالسواد والبياض. (المعجم الفلسفي. ص ٥٨).

تعصُّب:

هو عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناء على ميل إلى جانب. (المعجم الفلسفي. ص ٦٠).

تقوى:

هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي حتى لا ترى في قلبك شيئاً سوى الله. (المعجم الفلسفي. ص ٦٣).

تناقُض:

يطلق على تناقُض المفردات وتناقُض القضايا، فتناقُض المفردين اختلافهما بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته حمل أحدهما وعدم حمل الآخر، وتناقُض القضيتين اختلافهما كماً وكيفاً. (المعجم الفلسفي. ص ٦٥-٦٦).

جدال:

عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والمجادلة هي المنازعة والمخاصمة لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم. (المعجم الفلسفي. ص ٧٢).

جهل:

الجهل نوعان: الجهل البسيط، ويقرب من السهو كأنه جهل بسيط سببه عدم استثبات التصور، حتى إذا نُبه الساهي أدنى تنبيه تنبه، وكذا الغفلة والذهول، والجهل البسيط بعد العلم يسمى نسياناً. والجهل المُركب، وهو اعتقاد جازم غير مطابق سواء أكان مستنداً إلى شبهة أم إلى تقليد، ويسمى مركباً لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه. (المعجم الفلسفي. ص ٧٦).

حتمية:

من الحتم وهو القضاء (المعجم الفلسفي. ص ٨٠)، وهي النقطة النهائية لكل شيء قابل للتوقع. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٢٦٥).

حُرية:

الحرية نوعان:

الحرية الإيجابية: وهي القدرة على اختيار البدائل المتاحة، وإتيان

الأفعال المعتمدة المسئولة، والقيام بالمبادرات، مثل: حرية التفكير والتعبير والاجتماع والعمل والعبادة والتملُّك. والحرية السلبية: وهي التحرر من الضغوط وأنواع القسر والمعوقات التي قد يفرضها آخرون، أو الظروف على الفرد، مثل: التحرر من الحاجة والخوف. (المعجم الفلسفي. ص ٨٦-٨٧).

حكمة:

هي الرأي السديد الذي يسلك بصاحبه المسلك الصائب. (المعجم الفلسفي. ص ٩٤).

حكومة:

نظام حكم أو مجموع مؤسساته الحاكمة، وتنقسم من حيث خضوعها للقانون والرئيس الأعلى لها ومصدر السيادة فيها. فمن حيث الخضوع للقانون تنقسم إلى: استبدادية يكون للحاكم فيها سلطة مطلقة، و قانونية لا يجوز للحاكم أن يتصرف فيها إلا طبقاً للقانون. وتنقسم الحكومة القانونية إلى مطلقة يركز فيها القانون جميع الصلاحيات بيد الحاكم، و مقيدة يوزع دستورها الصلاحيات على مؤسسات الدولة. ومن حيث الرئيس الأعلى تنقسم إلى ملكية وراثية ، و جمهورية. ومن حيث مصدر السيادة تنقسم إلى فردية (وفيها الاستبدادية المطلقة والدكتاتورية)، وحكومة أقلية (أرستقراطية)، وحكومة شعبية (ديمقراطية). (المعجم الفلسفي. ص ٩٥).

خلاف:

القول المرجوح في مقابله القول الراجح وهو الاختلاف. ويستعمل الخلاف فيما لا دليل عليه، والاختلاف فيما بني على دليل. (المعجم الفلسفي. ص ١٠٢).

دولة:

تنظيم سياسي يكفل حماية القانون وتأمين النظام لجماعة من الناس تعيش على أرض معينة بصفة دائمة. (المعجم الفلسفي. ص ١١٠).

ويجد علماء الاجتماع صعوبة كبيرة في إيجاد تعريف محدد للدولة، والسبب هو الاختلاف حول، هل تُعرّف الدولة من وجهة النظر المعيارية أم من وجهة النظر الوصفية أم بجمعهما معاً. هل هي الترابط بين الحكام والمحكومين، هل الدولة هي مجرد امتلاك الثكنات والسجون والمحاكم، هل هي محاولة لترشيد العلاقات الاجتماعية ؟. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٣٠١-٣١٠).

دينامكا:

هي القوى المحركة، طبيعية كانت أو أخلاقية أو فكرية، المؤثرة في أي مجال. (المعجم الفلسفي. ص ١١١).

روح:

هي مبدأ الحياة في البدن، ويقال روح الإنسان بمعنى مصدر الحياة فيه، وروح العالم أي سبب حركته وانتظامه ..(المعجم الفلسفي. ص ١١٩-١٢٠).

سُلطة:

في اللغة هي التسلط والسيطرة والتحكم، وقد تكون السلطة سياسية أو أدبية أو علمية أو دينية. (المعجم الفلسفي. ص ١٢٦).

صُدفة:

ترى بعض الفلسفات الوضعية أن الصدفة اتفاق مجهول العلة، أو تزامن لسلسلتين عليتين مستقلتين. (المعجم الفلسفي. ص ١٣٩).

والمنظور الإسلامي لتفسير التاريخ لا يؤمن بالصدفة ويقول أن هناك آجال وأقدار تسير وفق سنن ربانية محكمة، وترتبط بعمل الإنسان في ميزان الخير والشر، والحلال والحرام، بل هي انعكاس لجوهر أعماله التي تأتي بعض نتائجها أحياناً مباغتة بعد أن هيأ لها الإنسان أسباب الظهور.

صوري:

المختص بالشكل دون المضمون، وهو الشيء الموجود وجوداً

خارجياً. (المعجم الفلسفي. ص ١٤٣).

ضلال:

في اللغة الغي والفساد، والخطأ والزلل والبطلان، وفي الاصطلاح فقدان ما يوصل إلى المطلوب، وقيل ألا يجد السالك طريقه إلى مقصده، أو أن يخطئ في مكانه ولم يهتد إليه. (المعجم الفلسفي. ص ١٤٨).

طاعة:

الطاعة أعم من العبادة التي استعملت في تعظيم الله وحسب، والطاعة موافقة الأمر، وتجوز الطاعة لغير الله في غير المعصية، ولا تجوز العبادة لغير الله. (المعجم الفلسفي. ص ١٥٠).

طبقة:

في اللغة القوم المتشابهون، فطبقات الرواة عند علماء الحديث هي جماعاتهم التي تشترك في السنن وتتشابه في الأخذ. والطبقة عند علماء الاجتماع هي الجماعة التي يقوم تشابهها على اشتراك المصالح. (المعجم الفلسفي. ص ١٥١).

طبيعة:

فلسفة الطبيعيين، وهم ينكرون الخالق والبعث والإعادة، ويقولون بالطبيعة التي تُحيي وتُغني، وهم الدهريون في القرآن "وقالوا ما هي إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا"وما يهلكنا إلا الدهر" (الجاثية ٢٤)، (المعجم الفلسفي. ص ١٥٢).

الظُلم:

لغة وضع الشيء في غير محله، وفي الشريعة عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد. (المعجم الفلسفي. ص ١٥٧).

عبث:

هو كل فعل لا تترتب عليه فائدة أصلاً. (المعجم الفلسفي. ص ١٦٢).

عجز:

ضد القدرة، وهو عدم القدرة. (المعجم الفلسفي. ص ١٦٢).

عقيدة:

هي المبدأ الذي يقوم عليه المذهب ويسلم معتنقوه بصحته ابتداء كنوع من الإيمان، ولذلك ارتبطت العقيدة بالدين مثل (العقيدة الإسلامية). (المعجم الفلسفي. ص ١٧٢).

علة:

في اللغة عبارة عن معنى يحل بالمحل فيتغير به حال المحل بلا اختيار، ومنه يسمى المرض علة لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلي الضعف. (المعجم الفلسفي. ص ١٧٥).

علة غائية:

هي -كما يقول ابن سيناء- على العلل، وتتقدم سائر العلل إنما تصير عللاً بالفعل لأجل شيء سوى نفسها. (المعجم الفلسفي. ص ١٧٦).

غائية:

هي النظرية التي تزعم أن كل ما في الوجود يتوجه لتحقيق غاية معينة. (المعجم الفلسفي. ص ١٨٧)، وهي الهدف الذي يراد الوصول إليه. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٤٠٦-٤١٠).

فاعلية:

هي النشاط التلقائي المؤثر، وهي النزوع الطبيعي لإتيان الأفعال، فتقول فاعلية (فلان) أي ما يُبديه من نشاط، وفاعلية للكائن الحي جملة سلوكه أو عملياته العقلية النفسية. (المعجم الفلسفي. ص ١٩١).

فساد:

زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة، ويقابله الكون، فإذا دل الكون على الوجود بعد العدم، فإن الفساد يدل على العدم بعد الوجود، والفساد تدريجي حتى يبلُغ الدرجة التي تمنع الشيء من تسميته بذات الاسم.

(المعجم الفلسفي. ص ١٩٣).

فوضوية:

مذهب اجتماعي يشتق اسمه من لفظة إغريقية بمعنى لا حكومة، وهو المذهب الذي يناهض قيام الحكومات ويدعو إلى إنشاء مؤسسات اجتماعية واقتصادية بمحض اختيار الناس وإرادتهم الحرة. (المعجم الفلسفي. ص ١٩٩).

فئة:

هي الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض، ويسمى أفرادها عناصر الفئة، وليس الأفراد وحدهم الذين يمكن أن يكونوا عناصر الفئة بل الفئات أيضاً، ولذلك فهناك فئات وأنواع منها، ويتم تحديد الفئة بما يكون لأفرادها من خصائص مشتركة. (المعجم الفلسفي. ص ٢٠٠).

قابلية:

هي استعداد لقبول التأثير وهو عبارة عن إمكان اتصاف شيء بصفة لم تحصل له بعد مع وجود حالة يحصل بها. والقابلية والمقبولية بمعنى واحد. (المعجم الفلسفي. ص ٢٠٤).

قبلية:

القبلية والبعدية من المعقولات الثانية، والقبلية الزمانية عبارة عن تحقق الشيء في زمان لا يتحقق فيه الآخر، وذلك أعم من أن لا يتحقق ذلك الآخر أصلاً أو يتحقق ولكن لا في ذلك الزمان بل في زمان لا حق. (المعجم الفلسفي. ص ٢٠٨).

قضية:

القضية المنطقية جملة خبرية تفيد خبراً يحتمل الصدق أو الكذب. (المعجم الفلسفي. ص ٢١١).

لا مبالاة:

حالة نفسية حيادية لا تنفعل باللذة ولا بالألم، أو أنها الغيبة عند أهل

الشهود، أي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل الحس بما ورد عليه. (المعجم الفلسفي. ص ٢٢٨).

ليبرالية:

هي شكل من أشكال العلاقات التي تحكمها المصلحة. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٤٦٦).

ماركسية:

الفلسفة الماركسية، وهي ما كتبه المفكرون بعد ماركس تطبيقاً لنظريته في مختلف المجالات. وقد اعتبر ماركس ما كتبه "كتابات علمية تاريخية اجتماعية" وليس فلسفة؛ لأنه اعتبر الفلسفة تمثل فكر الطبقة البرجوازية التي ستفنى باندلاع الثورة البروليتاريا، وبالتالي ستفنى معها الفلسفة. (المعجم الفلسفي. ص ٢٤٥).

مقولة:

هي قول يُقال بغير تأليف. (المعجم الفلسفي. ص ٢٧٩).

موضوعية:

صفة الموضوعي، واتجاه عقلي لرؤية الأشياء كما هي عليه في الواقع، فلا يشوهها بالنظر الضيق أو المنحاز. (المعجم الفلسفي. ص ٢٨٩).

نُخبة:

النخبة هي المجموعة القادرة على الفعل والتأثير. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٥٥٣-٥٥٩).

نهضة:

الحركة الثقافية التي بدأت في إيطاليا في منتصف القرن الرابع عشر واستمرت حتى القرن السابع عشر وامتدت إلى بقية أوروبا. ويُؤثِرُ البعض أن يسميها الإحياء (لأنها كانت إحياء للتراث اليوناني)، وهي تمثل الانفتاح في الاقتصاد وفي العلوم وفي الفلسفة. (المعجم الفلسفي. ص ٣٠٦-٣٠٧).

نفعية:

تعتبر النفعية حركة فكرية وتأملية معقدة حول دور المصالح في النظام الاجتماعي والتغيير الاجتماعي، فمثلاً:

"أنا أختار تلك الحاجة ليس لأنها أفضل، وإنما لأنها ذات قيمة اجتماعية أكبر".

"أنا اخترت (كذا) لأنني أعتقد بفاعليها كونها موضع اعتقاد جماعي".

"تعتقد حكومة معينة أن التدابير الضرائبية أو الاجتماعية المعينة، هي أفضل أدوات لسياسة زراعية جيدة. ولكن هذا الاعتقاد يمكن أن ينجم عن النفوذ النسبي لمجموعة الضغط هذه أو تلك. (المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ص ٥٨٠-٥٨٤).

واسطة:

ما يتوصل به إلى الشيء. (المعجم الفلسفي. ص ٣١٥).

وضعي:

ما كان من وضع واضع فهو موضوع أيضاً، يقال "قوانين وضعية" لأنها من صنع الإنسان. (المعجم الفلسفي. ص ٣٢١).

وهم:

الظن الفاسد، وقيل الخداع الحسي أو التمثل الحسي الكاذب الناشئ عن الانخداع بالظواهر. (المعجم الفلسفي. ص ٣٢٣).

الملحق (٣)

ملخصات من تطبيقات الطلاب

أعدوها بأنفسهم

١-القضية الفلسطينية.
٢- نشأة وسقوط الدولة الفاطمية.
٣-نشأة فلسطين.
٤-سقوط الدولة الأموية.
٥-نشأة الدولة الأيوبية وسقوطها.
٦-أسباب سقوط الدولة البيزنطية.
٧-سقوط الدولة العثمانية.
٨-الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط.
٩- أسباب سقوط الدولة الأموية.
١٠-مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية.
١١-نشأة الدولة العباسية وسقوطها.

ملاحظة مهمة

أود أن أوضح بأن كافة الملخصات قد وضعها أصحابها بطلب مني، وأن الآراء الواردة فيها هي للباحثين المعنيين، وأنني لم أتدخل فيها إلا من قبيل التصويبات الإملائية والنحوية، أو عند وجود حاجة لاختصار فقرة دون التأثير على فكرة صاحبها عملاً بمبدأ حرية الرأي والتعبير، أو إذا وجد لزوم لتهذيب بعض الألفاظ، أو إضافة لفظ يوضح المعنى.

عنوان البحث

القضية الفلسطينية

(تطبيق نظرية اشبنغلر)

الباحثون:

أحلام علي الخميسي، ألطاف محمد أحمد المطري، بلقيس سعد الخميسي، زمزم قايد الأسودي، ليلى صالح محمد الماوري.

نستطيع أن نطبق نظرية اشبنغلر على القضية الفلسطينية في جانبين هما: **فكرو المصير، والتشكُّل الكاذب للحضارة،** وذلك كما يلي:

أولاً: فكرة المصير عند اشبنغلر:

تعني فكرة المصير عند اشبنغلر، شعور الإنسان بذاته إزاء قوة إنسانية أخرى تتحداه وتجعل وجوده في خطر، حينئذ تنبثق الطاقات الكامنة فيه من أجل تأكيد الوجود.

وفي ضوء ذلك لاحظنا انطباق هذه الفكرة على القضية الفلسطينية، حيث اتضح ذلك من خلال المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني منذ بدايته. حيث أن هذا الاحتلال استفز الفلسطينيين وجعلهم يشعرون بذاتهم إزاء قوة خارجية وهي "الاحتلال الصهيوني" الذي يتحداهم ويجعل وجودهم في خطر، حينئذ انبثقت المقاومة عند الفلسطينيين من أجل تأكيد وجودهم وإثبات ذاتهم والمحافظة على كيانهم والعمل على استرداد حقوقهم.

ولكن يبدو أنه ليس كل حدث يمس المصير إذا ما ظهرت آفة التواكل على الغير. فعندما واجه الفلسطينيون التحدي الإسرائيلي للوهلة الأولى، كانت مقاومتهم تتصف بالضعف والشتات بسبب توقعهم مساعدات دولية بشكل عام، وغربية بشكل خاص، وذلك اعتماداً على ما تنادي به بعض المنظمات الدولية من مبادئ مثل "حق تحديد مصير الشعوب وتحقيق استقلالها".

ولكن بعد حرب حزيران ١٩٦٧م لامس التهديد الإسرائيلي جوهر الذات الفلسطينية، فأدركوا بطلان وضعف تلك المبادئ التي طالما علقوا عليها الأمل، هذا فضلاً عن تخاذل القيادات العربية تجاه القضية الفلسطينية، وهو ما دفع الشعب الفلسطيني إلى تنظيم المقاومة من اجل الدفاع عن كيانه وهويته وأرضه في وجه التهديد الخارجي المتمثل في الكيان الصهيوني.

ثانياً: التشكل الكاذب للحضارة:

يقصد اسبنغلر بمفهوم التشكل الكاذب للحضارة هو أنه قد يحدث أحياناً تلاقي حضارتان تكون إحداهما أشد قوة ولكن الأخرى أعظم إبداعاً وأكثر عراقة فتضطر الحضارة المهزومة أن تتلاءم ظاهرياً مع الحضارة الغالبة ما دامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخالصة، وتتشكل مظاهر هذه الحضارة في القوالب الفارغة التي فرضتها عليها الحضارة الأجنبية، ويظن الناظر إلى الحضارة المغلوبة على أمرها أنها قد اختفت بينما هي كامنة خلف القشرة الخارجية التي فرضت عليها.

وقد لاحظنا أن هذه الفكرة تنطبق أيضاً على بعض أبعاد القضية الفلسطينية من حيث أن الاحتلال الصهيوني يمثل الدولة القوية عسكرياً التي استطاعت أن تهزم الدولة الأكثر إبداعاً وعراقة، وهي الدولة الفلسطينية، إلا أن الدولة المبدعة لا تستسلم لحضارة الدولة المنتصرة. ويلاحظ ذلك من خلال أن الشعب الفلسطيني يعمل على الحفاظ على طابع وحضارة الدولة الفلسطينية أو حتى ما تبقى منها.

ويظن الناظر إلى الشعب الفلسطيني المغلوب على أمره أنه قد استسلم للعدو الصهيوني المحتل لأراضيه، بينما الأمر هو مجرد قشرة مؤقتة فرضت عليهم.

كذلك تنطبق هذه الفكرة على الأم ولأخت والزوجة الفلسطينية، فبالرغم من الغزو الفكري -الظاهر- للاحتلال في الأراضي الفلسطينية والتأثر العام بمظاهر الحضارة الغربية فإننا نلاحظ أن ذلك عبارة عن قشرة خارجية

مؤقتة، والدليل على ذلك أن الأم الفلسطينية تقوم بإرسال ولدها لقتال الجيش المحتل ومع علمها بأنه لن يعود إلا أنها تواجه ذلك بكل إيمان وصبر، وحين يصلها خبر استشهاده تكون فرحتها غامرة فتعمل على صبغ على صبغ أيديها "بالحناء" وتردد الأناشيد الدالة على فرحتها وافتخارها بأنها أم الشهيد، إلى جانب استعدادها إرسال جميع أولادها للاستشهاد، بل استشهدت هي نفسها أحياناً.

وكذلك الشباب والفتيات الفلسطينيون الذين ينفذون العمليات الاستشهادية دون تردد وخوف، بصرف النظر إن كانوا متدينين أو علمانيين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الإيمان التام بقضيتهم وباسترجاع حقوقهم وهويتهم وحضارتهم والدفاع عن عقيدتهم.

عنوان البحث

نشأة وسقوط الدولة الفاطمية

(تطبيق المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ)

الباحثون:

سمية العروسي، رحاب غثاية، شفاء الشهاري، أشجان الأهدل، غادة شمسان.

الدولة الفاطمية واحدة من أهم دول العصر الإسلامي الثاني؛ لأنها جاءت بمذهب مغاير ومتطرف إلى حد بعيد، ومع ذلك نستطيع القول أنها قد عملت على بناء كيان سياسي فريد بل وأصرت على نشر مذهبها بكل السبل، كما بنت دولة قوية ذات وزن تاريخي جعلت عقيدتها تقوم على أساس أنها صاحبة الحق في النبوة وفي الخلافة. وقد ترجموا طوحهم هذا من خلال نشاط الدعاة والولاة والحكام وهو ما مكنهم من الوصول إلى أرض مصر التي أقاموا فيها دولتهم، ومع قيام هذه الدولة بدأت علامات لازدهارها ثم علامات أخرى لاندثارها، وهذا ما حاولنا تطبيق المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ على أحداثه.

أولاً: استقرار الحضارة واستمرارها:

ارتبطت الدولة الفاطمية بعامل ديني قوي منذ نشأتها تمثل **بالمذهب الشيعي الاسماعيلي**، حيث كان له الدور البارز في صنع حضارتها، فقد دافعت عنه وصبغت كيانها به -بصرف النظر عن صحة ذلك المذهب أو خطئه- وهو المذهب جر لاحقاً إلى التجرؤ على كل الثوابت والمحرمات في الشريعة الإسلامية.

وهنا نذكر أن من عوامل استقرارهم واستمرارهم ثم بناء دولتهم وجود أرض مناسبة لنشر أفكارهم وترسيخها ووجود شخصيات أثرت بشكل كبير على سير دعوتهم، فكان التأسيس في منطقة كان لها قابلية الاستيعاب

والتقبل وهي بلاد البربر في المغرب، وذلك بسبب الحياة القبلية البسيطة هناك، وهذا جعلهم يستوعبون هذا المذهب ويتمسكون به ويحاربون من أجله رغم مقاومته فيما بعد. ومن هذا المنطلق بدأ سعيهم حثيثاً لإيجاد منطقة حضارية مزدهرة، فكان انتقالهم إلى مصر مرحلة من مراحل استكمال طور التأسيس لدولة جديدة، فعمدوا أولاً للترويج لمذهبهم بإرسال الدعاة إلى مصر ومن ثم إرسال عدة حملات عدة حملات لفتحها حتى تمكنوا من تحقيق هدفهم على يد "جوهر الصقلي" في عهد المعز لدين الله الفاطمي.

ثانياً: عوامل الاندثار:

لقد ظهر تناقض غريب في تاريخ هذه الدولة، ففي الوقت الذي كان الفاطميون يتمسكون بعقيدة ومذهب يدعون فيه الكمال، فقد كانوا كذلك ينتهكون المحرمات بشكل تجاوز كل الحدود وهو ما يتضح من الآتي:

١- الثراء الفاحش:

فالدولة الفاطمية من أكثر الدول الإسلامية التي انغمست في الملذات والشهوات مع التحلل والابتذال مما يعكس مذهب غير سوي دعوا له وتمسكوا به، ركز على الخلافة والنبوة والرجعة لتحقيق العدالة على الأرض، وهي التي ضيعوها بممارساتهم، فمثلاً نرى الحاكم بأمر الله يدعي الألوهية والخلق، ولا شك أن ذلك يعد من الأمور العظيمة التي تجعل غضب الله وسخطه يحل بهم.

٢-الغرور الفكري والمادي:

فغرور مؤسسو الدولة الفاطمية كان ظاهراً، فنراهم يتجاوزن الحد فغيروا المعتقدات واستهانوا بالزكاة وألغوا الحج وغيروا في الأذان .. وغير ذلك، وهذا من أسباب اندثار حضارتهم. وما زاد من هذا الغرور وهذه الأسباب استكثارهم من المماليك والأرمن والسودان الذين بكثرتهم طغوا على المجتمع المصري بفسادهم وإفسادهم، وذلك في الوقت الذي أوصلوا اليهود إلى مناصب مهمة في الدولة.

٣-فساد نظام الحكم:

إن النتيجة الطبيعية للترف الزائد والممقـوت، والتحلـل مـن القـيم والأخلاق، فظل انحراف فكري ومادي، هو الوقوع في مستنقع عبادة وتأليه البشر، فالحاكم بأمر الله أعلن ألوهيته فوقعت الدولة في وزر تصرفه وهـو ما زاد الأمر تدهوراً.

٤-الظلم:

بما أن الظلم هو تجاوز الحد ووضع الشيء في غير محله كمـا انـه انتكاسة للقيم ومكارم الأخلاق، فإن الدولة الفاطمية قد جسدت ذلك من خلال معاملتها للمسلمين من أهل السنة، فقاموا بقتلهم وتجريـدهم مـن أمـوالهم ومناصبهم، وكذلك التطاول على سب الصحابة بكتابة ذلك علـى جـدران المدينة والدعاء عليهم في خطب الجمعة، وهذا يدل على المرحلة التي وصل إليها الحكام في الدولة الفاطمية من انهيار لمكارم الأخلاق.

كل ما تقدم من مظاهر التدهور كان من أسباب انهيار الدولة الفاطمية واندثارها. وهكذا يمكن أن نفهم أن الله سبحانه يمكن فـي الأرض للعـادل والظالم فيأخذ كل واحد بجريرة أعماله طالما أنه قد ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالعقل. فعندما هيأ الله للدولة الفاطمية أسباب وجودها وقيامها وتمكنها، تجبرت وعصت واستكبرت وازداد ظلمها وغيها. فلما ظنوا أنهـم قادرون عليها ! أحاط الله بهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فسلط عليهم الـذل والهزيمة على يد الأيوبيين الذين أعادوا للإسلام هيبته ومكانته فـي قيـادة الأمة روحياً ومادياً.

عنوان البحث

نشأة فلسطين

(تطبيق نظرية ابن خلدون)

الباحثون:

نجود مقبل أحمد الشاحذي، هناء محمد صالح العبسي، نور العين عبده عاطف، أمل محمد عبد الله الهادي، لولة صالح حسين المسيبلي.

أولاً النشأة:

١-طور البداوة:

من خلال تطبيق هذا الدور وجدنا أن الكنعانيين في البداية كانوا يحبون حياة البداوة، حيث كانوا يعيشون متنقلين في البراري وراء الكلاء والماء، وقد كان استقرارهم مرتبط بوجود المراعي لرعي ماشتهم، وبوجود الماء الضروري لاستمرار حياتهم. وعندما يسود الجفاف مناطقهم كانوا يبحثون عن منطقة أخرى تؤمن لهم متطلبات حياتهم فينتقلون إليها، لذلك كانت حياتهم حياة تنقل من مكان على آخر فيستقرون حيث توفرت السبل لذلك.

وبالرغم من حياة التنقل هذه فقد كانوا متماسكين مع بعضهم البعض، وكان ذلك نتيجة الرابطة وقرابة الأرحام والمصاهرات، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بـ "**العصبية**"، حيث بين أنه كلما كانت القرابة بين أفراد البدو أكثر أصالة وأشد نقاوة كانت العصبية فيهم أقوى.

وقد كان الكنعانيون رغم تفرقهم إلى جماعات وتوجه كل جماعة إلى منطقة مختلفة، إلا أنهم كانوا يتواصلون فيما بينهم باستعمال الجمال في ترحلهم وهي الطريقة الأكثر شيوعاً للتواصل وهذا يوافق ما قاله ابن خلدون

في أن الرياسة فيهم تكون على سائر البطون والقبائل التـي تختـلط فيهـا الأنساب.

ومن ناحية أخرى يرى ابن خلدون أن العصبية يدعمها عاملان همـا: **احترام القبيلة لشيخها، و حاجتها للدفاع والهجوم.**

وفعلاً فقد كان الكنعانيون يحترمون شيوخهم ويوقرونهم، وكانوا يرون أن قائدهم هو ابن معبودهم الروحي، وأيضاً كانوا يقومـون بالـدفاع عـن أنفسهم بشتى الطرق، حيث يطورون مهاراتهم القتالية ويبتكـرون أسـلحة تحميهم أكثر حتى توصلوا إلى صناعة الأسلحة من البرونز والحديد.

٢-طور التحضر:

دخل الكنعانيون طور التحضر مبكراً ومتداخلاً مع طور البداوة وذلك عملية طبيعية؛ لأنها -كما يذكر ابن خلدون- مرحلة تبـرز فيهـا الحاجـة الاقتصادية وهو ما يدفع القبيلة إلى الدفاع عن نفسها أولاً ثم إلى الغزو ثانياً، وبعد تأسيس الدولة تلجأ إلى تشييد المدن وهذا يحتاج إلى المـال والأدوات وقوى عاملة ضخمه يلعب الملك دوراً كبيراً في توفيرها.

إن نمو الحضارة يحتاج -بحسب ابن خلدون- إلى ثلاث مزايا هـي: مزايا الأرض لأنها مصدر الإنتاج، ومزايا الحومة التي لا بد أن تتوفر فيها القوة لكي تتمكن من حماية السكان، وكثرة السكان لأن جهدهم ووقتهم أساس لبناء الحضارة. ولذا فإن الجماعات المهاجرة من مواطن عدة كانت تتنقـل بين أرجاء البادية في أرض مكشوفة للجميع للبحث عن الماء والكلاء أينمـا وجد. فالمزارعون سكنوا إلى جانب الأنهار وقاموا بزراعة الأرض في حين أن الرعاة تكيفوا مع الطبيعة، وفلسطين تعرضت منـذ القـدم لكثيـر مـن الهجرات التي سكنت في أماكن متفرقة وعملت كل منها على إنشاء مـدن وأسوار وأبراج للحماية، ثم امتزجوا مع أصحاب تلك البلاد واستقروا فيهـا وتعاونوا على حماية كيانهم من أي عدوان. وهكذا تدرجت حياة الكنعـانيين من البداوة التي عاشوها في الجزيرة العربية منذ الألف ٤ق.م.إلى التحضر.

عنوان البحث

سقوط الدولة الأموية

(تطبيق المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ)

الباحثون:

عارف أحمد مسعد العثماني، شاكر عبد الله قايد سيلان، خالد أحمد علي القاضي، ياسر حمود حسن الرضمي، عبد الله سالم ضيف الله..

يمكن تفسير سقوط الدولة الأموية في ضوء المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ كما يلي:

١-الثراء الفاحش مع التحلل والابتذال:

إن الثراء الفاحش والانغماس في الملذات والشهوات هو إحدى الآفات الهامة التي تنخر في عظام المجتمع وتفتت عضده (انظر سورة الإسراء آية ١٦). فقد تبين أن عهد الخلفاء الأخيرين طغت علية حياة الترف ولانغماس في الملذات وشرب الخمر مما أدى إلى ضعف هذه الدولة، وفقدان الخليفة هيبته بين الرعية، مثل يزيد بن معاوية الذي كان صاحب طرب وانغماس في الشهوات.

٢-الغرور الفكري والمادي:

إن بني أمية بنسبهم وبالمال الذي جمعوه بدؤوا يبتعدون عن الكتاب والسنة، فتعصبوا للبيت الأموي، ثم تعصبوا للجنس العربي، وكذلك اهتموا بأنفسهم ولم يهتموا بأمر العامة، وهذا كله أدى إلى نقمة الموالي عليهم فقاموا بثورات ضدهم، وإلى نقمة العامة على حكامهم.

٣-فساد نظام الحكم:

في أواخر عهد الدولة الأموية بدأ الفساد يعم في أوصال الدولة، فلم يعد الخليفة يهتم بأمور الخلافة فانصرف إلى غيه وترك أمور إدارة الدولة

للفاسدين يتصرفون كما يشاؤون، فظهر الظلم واشتكى منه الرعية إلا أنهم لم يجدوا أذن صاغية فانقلبوا عليها. وهكذا عندما يغيب العدل وينتهي الشورى ويعم الظلم، تنهار الدولة والعكس صحيح.

٣-الظلم:

بما أن سنن الله التي تضمنها القرآن الكريم تربط الإيمان بالعمل الصالح، فإن جحود النعمة وعدم شكرها يوجب زوالها.

ففي أواخر عهد الدولة الأموية تفشى الظلم بشكل كبير، ومثال ذلك قتل "الحسن بن علي" رضي الله عنهما، وكذلك استباحوا حرمة المدينة في معركة الحرة، وحاصروا الكعبة وضربوها بالمنجنيق، وقتلوا "عبد الله بن الزبير" والعالم الجليل "سعيد بن جبير". هذا إلى جانب أنهم فرضوا زيادة في الضرائب وأقروا ضرائب جديدة لم تكن معروفة في العهد السابق، وأجحفوا في جمع تلك الضرائب من الرعية.

لقد كانت هذه المظالم وغيرها كافية لبدء أفول نجم الدولة الأموية، فقويت الحركات المعارضة والمنافسة لها، وعلى وجه الخصوص "بنو العباس" الذين انتشرت دعوتهم بفضل الممارسات الظالمة لبني أمية كما أشرنا. فانتهت الدولة الأموية لتقوم على أثرها الدولة العباسية، وهي حكمة أراد الله منها أن تكون درساً بليغاً لكل ظالم ومتجبر سواء أكان فرداً أم جماعة ..

عنوان البحث

نشأة الدولة الأيوبية وسقوطها

(تطبيق نظرية توينبي)

الباحثون:

أميرة حسين السربي، عاتقة عتيق صبر، جواهر محمد الدغار، كوثر عبد الكريم اليدومي، منى خالد الأمير.

أولاً: النشأة:

تعتبر الدولة الأيوبية في بداية ظهورها متحدية لظروف انتقالها من منطقة إلى أخرى فأثبتت وجودها في تلك المناطق وعملت على إبراز دورها في الإبداع.

وقد اعتبر "توينبي" أن كل حضارة ناجحة وراءها دين عالمي، وهذا الدين يكون سبباً في انهيارها عند مخالفته وتجاهله. ووفقاً لذلك نجد أن السلطان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية عمد حين تولى أمور الدولة إلى إعادة الأمور الدينية إلى نصابها في مصر، نظراً لأهمية ذلك في استقرار الدولة وتطورها، فكانت هذه هي مرحلة الإبداع، ثم لجأ السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى التوسع نحو المناطق المجاورة، حتى انه حاول دخول اليمن التي كانت تحت السيطرة الفاطمية وغرضه من ذلك القضاء على الفاطميين ومذهبهم في كل مكان.

لقد رأى "توينبي أن لجوء الدولة إلى التوسع الخارجي هو انتحار وتعبير عن ضعف ينذر ببداية السقوط ولكن هذا يتناقض مع حقيقة توسع الدولة الأيوبية الذي أوصلها إلى قمة الإبداع، وربما أن السبب في ذلك يعود إلى أن هذه الدولة كانت ما تزال في طور الإبداع ولم تصل إلى مرحلة الهرم، ولذا كان التوسع نجاحاً وليس هروباً.

أما التحدي فيظهر جلياً عند قيام الدولة، وذلك عندما حاول السلطان صلاح الدين الأيوبي الانسلاخ عن "نور الدين زنكي" في بلاد الشام، والاستقرار بقيام دولة في مصر. لهذا عمل على توسيع رقعة دولته بغرض توحيد الأمة والوقوف في وجه تحدي الغزو الصليبي بعد ما أصابها من ضعف وتشتت وهوان ووهن. هذا إلى جانب اعتماد صلاح الدين لمبدأ التخطيط السليم وإحياء روح الجهاد وتعبئة الناس كافة للدفاع عن أنفسهم ودينهم. وبذلك واجه صلاح الدين تحدي البيئة وتحدي الظروف المحيطة بدولته الوليدة فحقق نجاحاً وإبداعاً أساسه العقيدة الصحيحة.

ثانيا: السقوط:

يشدد "توينبي" على أن الدولة لا تسقط بغزو خارجي، ولكن السقوط الذاتي يبدأ أولاً عندما تفقد الأقلية الحاكمة زخم الإبداع الذي دفع الناس للالتفاف حولها ومساندة أهدافها عند نشأتها. وهو ما نلاحظه عند خلفاء صلاح الدين الذين تحولوا إلى أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الإبداع، وهو ما انسحب كذلك على فقدان التماسك الاجتماعي؛ لأن افتتان الجماهير بالسلطان صلاح الدين جعلها لا تقبل بأقل منه.

كما جاء في نظرية "توينبي" أن التحدي الحقيقي للمجتمع لا يقوم به إلا أفراد يحملون صفة الإبداع من بين صفوف "البروليتاريا" (قصد به عامة الناس). وقد قسمهم إلى قسمين، بروليتاريا داخلية ذليلة لكنها عنيدة وتتحين الفرصة للثورة، وأخرى خارجية متربصة تقاوم الاندماج في المجتمع تستعد للغزو عندما تسمح الظروف. فربما كان موقف المماليك انعكاس لهذه الرؤية.

عنوان البحث

أسباب سقوط الدولة البيزنطية

(تطبيق نظرية اشبنغلر)

الباحثون:

عز الدين علي محمد صلاح، عوض محمد الحماطي، محمد مرتضى بن يحي، نشوان زيد عنتر، وليد حسن سارية.

١-التاريخ عند "اشبنغلر" يقتصر على النطاق الدنيوي لا الديني، المادي لا الروحي.

وهذا يلتقي مع واقع الدولة البيزنطية، فقد أدى العجز المالي الذي ترتب على زيادة المصروفات لتغطية ما يحتاجه القادة الكبار إلى تدهور وانحطاط كبيرين، ومن ذلك ضعف الاقتصاد، وحدوث صراع ديني بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثونكسية وكذلك الصراع الذي اندلع بسبب عبادة الأيقونات، هذا على جانب زيادة الهوة بين الأغنياء والفقراء وما نتج عنه من صراع طبقي.

٢-رأى "اشبنغلر" أن لكل حضارة طابعها الخاص وموتها الخاص وموقعها الخاص.

وهذا انطبق على الدولة البيزنطية، فمن الناحية السياسة، أمسك الإمبراطور بيده السلطتين الزمنية والدينية. ففي الجاني الديني: كان مذهب الدولة هو الأرثونكسية، ومن الناحية الثقافية، كانت ثقافتهم ولغتهم إغريقية .
وفي الجانب العسكري: امتازت بنظام الثغور، ونفوذ طبقة العسكريين.

٣-شبه "اشبنغلر –أحياناً- الحضارة بأنها تشبه في تطورها دورات الفصول الربعة، وبتطبيق ذلك على الدولة البيزنطية سنجد الآتي:

أ-الربيع: فهو تمهيد، أي يمثل نواة ظهورها، فكانت قوية وحمت نفسها من القبائل الجرمانية.

ب-الصيف: ويمثل البداية، عندما بدأت الإمبراطورية باستعادة أملاك الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا وبلاد الشام.

ج-الشتاء: ويمثل الضعف، وذلك بدخول عدة متغيرات كالتوسعات الخارجية، والاختلافات الداخلية من دينية وطبقية واقتصادية، إلى جانب الاجتياح اللاتيني، وكل ذلك أدى إلى ضعف وتهور الحضارة البيزنطية حتى انتهت على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م.

٤-يعتبر المجتمع هو الوحدة الأساسية للحضارة من ناحية الإبداع وليس من ناحية الفرد. وهو ما يمكن تطبيقه على بيزنطة من خلال شرائح مهمة مثل: أساتذة الجامعات، والتجار، والأطباء، والأسر العريقة ذات الثقافة العلمية والعسكرية. وهؤلاء قدموا إبداعات عدة أسهمت في تأسيس قوة الدولة، ولكن عندما قل الإبداع عند هؤلاء ضعفت الدولة.

٥-الحضارة التي قامت على أساس روحي هي التي تستمر، وأما التي قامت على أساس مادي بحت فإنها تسقط .

وهذا ينطبق على واقع الدولة البيزنطية التي كانت تحت وطأة الغزو اللاتيني عام ١٢٠٤م، ويتمثل في الصراع بين الكنيسة الأرثوذكسية (بيزنطة)، والكاثوليكية (روما)، مما أدى إلى ضعف الوازع الديني عند سكان بيزنطة.

٦-يرى "اشبنغلر" أن عدداً من الحضارات نمت في بدايتها بتأثير حضارات سابقة رغم الاختلافات الروحية والثقافية بينها، مثل تأثير الثقافة الإسلامية واليونانية على دولة بيزنطة.

عنوان البحث

سقوط الدولة العثمانية

(تطبيق نظرية توينبي)

الباحثون:

بشير محسن علي هامر، كمال علي عبده عبدالله.

يرى "توينبي" أن من أهم عوامل تدهور الحضارة هو فقدانها للإبداع. ووفقاً لذلك فحين فقدت الدولة العثمانية عامل الجهاد الذي يمثل عامل إبداع قوي، وخلدت الأقلية الحاكمة فيها إلى الدعة والراحة والمجون، ظهرت في الداخل عدة انقلابات ومظاهرات منها الانكشارية والدوشرمة، وفي الخارج بدأت المقاطعات التابعة بالانفصال عن الدولة الأم وحتى التفكير بغزو أملاك الدولة نفسها والسيطرة عليها كما حدث في مصر وبلاد الشام.

وقد مثلت الحركات الداخلية في تركيا مثل الحركة الوطنية التركية وحركة تركيا الفتاة ما أطلق عليه توينبي "البروليتاريا" (عامة الناس)، أما السلاطين العثمانيين أمثال عبد الحميد، والاتحاديون فقد مثلوا ما سماه توينبي بالأقلية التي فقدت الإبداع وأصبحت عاجزة عن تمثيل القدوة أمام البروليتاريا الداخلية والخارجية، فأدى ذلك إلى ثورات واضطرابات. ففي الداخل اتجهت العامة نحو تأييد الحركات المعارضة، وفي المقاطعات الخارجية في البلقان وأوروبا زادت حركات الانفصال ضراوة وطموحاً نحو الاستقلال والتوسع على حساب الدولة العثمانية، وهذا قاد إلى إثارة أطماع أوروبا للنيل من الدولة العثمانية، وهذا التدهور أدى كذلك إلى تحالف البروليتاريا في الداخل والخارج. وبهذه الصورة نجد أن المجتمع هو الذي جلب على نفسه عوامل الانهيار قبل أن يجلبه عليه التآمر الخارجي، ففقدان الجهاد بكل صوره وفقدان الإبداع والقدوة الحسنة قاد إلى تناقضات صعُب السيطرة عليها، ولذا فإن أقصى ما فعلته الدول الأوروبية هو توجيه

الضربة القاضية إلى مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة. فقد كانت هذه الصورة إما بالاتفاقيات والمعاهدات أو بدفع القوى العلمانية بزعامة كمال أتاتورك لاستغلال فرصة الضعف والانقضاض على الحكم وإلغاء الخلافة الإسلامية.

عنوان البحث

الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط

(تطبيق المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ)

الباحثون:

أحمد علي حسن الزارعي، بلقيس عبد الوهاب جعدان، أنور عباس أحمد كمال، نضال محمد الإرياني، عادل أحمد عبد الله المسعودي.

تبارى المؤرخون في سرد عوامل نهوض الدولة العثمانية، وأسباب سقوطها. ولسنا هنا بصدد تقصي تلك العوامل والأسباب، بل سنشير إلى بعضها بما يحقق توضيح الموضوع المراد دراسته.

يقوم المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ على تصور نابع من السنن الربانية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والخاصة بنشأة الحضارات وتطورها وسقوطها التي ذكت في القصص القرآني للعظة والعبرة، وهي بطبيعتها الربانية تشكل ملمات سننية لا شك ولا جدل حولها. ووفقاً لذلك نجد أن الأوضاع العالمية في ذلك الوقت قد ساعدت تمكين آل عثمان. ففي أوروبا سادت فوضى الإقطاع، كما سادت الفتن والاضطرابات دول سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كذلك ضعفت الدولة البيزنطية وتدهورت سياسياً، هذا فضلاً عما شاهده العالم الإسلامي في تلك الفترة وما انتهى إليه من غزو المغول وسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد عام ٦٥٦هـ.

وفي ظل هذه الأوضاع هيأ الله تعالى أداة للإصلاح تمثلت في شخصية عثمان الذي تمسك بقيم ومبادئ الإسلام فكان ذلك سبباً في التمكين مصداقاً لسنة الله الواردة في القرآن " وعد الله الذين آمنوا منكم ..." (سورة النور آية ٥٥).

غير أن السنن الربانية ماضية في تطبيق أحكامها، فالإبداع الحضاري طبقاً لسنن الله إبداع محكوم بآجال كآجال الأفراد "ولكل أمة أجل ..." (الأعراف ٣٤)، وفي هذا الصدد ربطت تلك السنن توقف الإبداع بابتعاد الناس عن الجوهر الصحيح للعقيدة، أم شرط عودته فهو العود إلى روح تلك العقيدة. فالآجال محكومة أيضا بعلاقة الإنسان بخالقه. فالجحود بالنعمة يؤدي إلى زوالها فعندما انحرف العثمانيون عن المنهج القويم الذي كان سبباً في نهوضهم الحضاري، تدهورت أحوال دولتهم وانهارت أركانها وهو ما ينطبق مع سنن الله في مخلوقاته "فلما نسوا ما ذكروا به ..." (الأنعام ٤٤-٤٥)، فقد تجلت معاني هذه الآية بما قام به العثمانيون في المرحلة الأخيرة من تاريخ دولتهم عندما صانعوا الكفار والأعداء، ومنحوا الامتيازات للأجانب وغيبوا دور العلماء وجحدوا فضلهم ودورهم، فانتشرت البدع والخرافات وظهرت الفرق المنحرفة كالشيعة بمختلف فروعها، كما ظهرت الصوفية المنحرفة التي دعت إلى نبذ الحياة.

إلى جانب ذلك كانت حياة الترف التي عاشتها الدولة ودفعت الولاة إلى إتباع سياسات منافية للمنهج الذي قامت عليه دولتهم، وكل ذلك أدى إلى ضعف الدولة وفقدان هيبتها وقدرتها على البقاء، فتكالب عليه الأعداء من علمانيين وصهاينة وماسونيين ويهود دونمة وغيرهم ...، وبذلك تحققت سنة الله "وإذا أردنا أن نهلك قرية ..." (سورة الإسراء آية ١٦).

وهذه هي عوامل قيام وسقوط الدولة العثمانية حسب المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ كما رأيناها.

عنوان البحث

أسباب سقوط الدولة الأموية

(تطبيق نظرية ابن خلدون)

الباحث: محمد حسن علي الدهشاء.

يمكن دراسة أسباب سقوط الدولة الأموية بتطبيق نظرية ابن خلدون من خلال النقاط التالية:

١-العصبية:

يرى ابن خلدون أن عوامل قيام الدولة هي نفس عوامل تدهورها وانهيارها، وأن العصبية تلعب دوراً كبيراً في النشأة وفي السقوط؛ لأنه بها تتم الرياسة والمُلك وبها يزولان، وبخاصة عندما يميل الملك إلى حب الانفراد بالرياسة وحب الانفراد بالمجد الشخصي يبدأ بالتنافر مع عصبيته خوفاً من مشاركته المجد فيتعامل معهم بالتحييد أو بالقتل والتنكيل ويستعين عليهم بعصبية جديدة مثل الموالي والصنائع.

وقد وجد أن هذا العامل ينطبق على الدولة الأموية إلى حد كبير لأنها تنزع إلى الحكم الفردي والعصبية الشامية منذ البداية، ثم تنكرت بعد ذلك لعصبيتها المتمثلة في "قبيلة بني كلب" التي أعانت بني أمية على قيام دولتهم، مثال ذلك تنكُر يزيد الثاني ومروان بن محمد لتلك القبيلة ومعاملتهم المسيئة لها مما جعلهم من أشد أعدائهم ، وهو ما شكل عامل مهم في تدهور أحوال الدولة الأموية وانهيارها؛ لأنها أخلت بأحد أسباب بقائها. وقد اتضح ذلك من خلال الصراع بين القيسية واليمنية الذي تدخل فيه بنو أمية وأصبحوا طرفاً فيه مما عاد عليهم بالوبال والتدهور، وبوجه خاص بعد نقل مقر الخلافة من "دمشق" إلى "القدف" في البادية في عهد الوليد بن يزيد وإلى حران في عهد مروان بن محمد مما أثار قبائل الشام على الأمويين ومن ثم الانضمام إلى أي ثورة تقوم على بني أمية. هذا إلى جانب بروز عصبية

تعصبية من خلال تقسيم المسلمين إلى عرب وموالي ...، وهو ما أثار تعصباً مضاد للتعصب القائم.

٢-العامل الاقتصادي:

يقول ابن خلدون أن طبيعة المُلك تقتضي الترف حيث النزوع إلى رقة المطعم والملبس والفرش والآنية وتشييد المباني والتوسع في الأعطيات والهبات على الجند والموالي وغيرهم حتى يصل الأمر إلى أن دخل الدولة لا يفيء بخراجها مما يترتب عليه زيادة في الجباية والمُكوس (الضرائب). وهذا ينطبق على ما كان في الدولة الأموية وبخاصة في عهد الوليد بن يزيد الذي نقل مقر الخلافة من دمشق إلى الغدف في البادية، فأخذ ينفق الأموال على حاشيته والناس جزافاً، كما ضاعف في الأعطية والهبات دون حساب، فنقص المال نتيجة لذلك وفي المقابل زادت حاجته لمزيد من الإنفاق، بل وصل الحال به أن باع خالد ابن عبد الله القسري عامل العراق السابق لعدوه وخصمه يوسف بن هبيرة مقابل مبلغ من المال، مما جلب عليه عداء اليمنية ونقمتهم وبالتالي تحالفهم مع أعداء الدولة الأموية في القيام بثورة ضده وتنصيب الوليد بن يزيد عام ١٢٧هـ.

هذا بالإضافة إلى مبالغة الأمويين في عماراتهم من قصور وغيرها مما استدعى إنفاق الأموال الكثيرة عليها، وعندما لم يستطيعوا تغطية تلك النفقات طلبوا من الولاة إعانتهم فجلبوا لهم الموال بطرق مشروعة وغير مشروعة، وهو ما جلب عليهم تزايد نقمة العامة ضدهم وبخاصة في عهد "الحجاج"

٣-الترف:

يرى ابن خلدون أن الترف أهم معول هدم يؤدي إلى انهيار الدولة لما يلزم عنه من فساد الخلق؛ لأنه يؤدي إلى العُكوف على الشهوات وارتكاب الفواحش وغيرها من الانحرافات الأخلاقية.

فمن الواضح أن الترف الذي يستخدم في غير موضعه جلب الناس إلى الانحراف عن الطريق القويم إلى الطريق الفاسد، من شرب الخمور والرقص والغناء، مثال ذلك انحراف آخر خلفاء بني أمية عن الطريق القويم. وهذا بدوره أدى إلى الضعف واللين وانحسار القوة، مما اذهب عن المترفين خشونة البداوة والكرم والنجدة وغيرها من الصفات التي اتصف بها المسلمون المجاهدون، وهذا جعلهم -بحسب نظرية ابن خلدون- يصبحوا من جملة النسوان لأنهم صاروا عالة، فهم لا يدافعون عن الدولة والرعية وإنما يحتاجون لمن يدافع عنهم.

وبذلك تكون الدولة الأموية قد سقطت لأنه نقضت بنيانها بنفسها بغية أن تبني بنياناً جديداً مكانه، ولكن البنيان الجديد لم يكتب له النجاح فسقط أمام العاصفة التي هزته بعنف شديد حتى تمزق وتساقط كأوراق الخريف.

عنوان البحث

مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية

(تطبيق المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ)

الباحثون: حنان أحمد حزام سريع، كفاية صادق حسان، غـادة أحمـد الخميسي، مايسة عبد الوهاب عمر، وفاء أحمد العلكمي.

خلق الله الإنسان وكرمه على سائر المخلوقات، وجعله خليفتـه فـي الأرض لكي يعمرها وينشر الخير فيها، ويعمل الصالحات ويدعوا إلى دين الله دون خوف من أحد، ويأمر بالمعروف وينهـى عـن المنكـر (سـورة العصر).

فالمبتعد عن مقتضيات الإيمان هو مبتعد عن الإخلاص فـي إيمانـه وعمله، وعندما يكون كذلك فهو ينشر الفساد في الأرض ويحـارب الـدين ويسعى إلى التدمير بدلاً عن البناء "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيهـا ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد" (البقرة ٢٠٥).

فالمتابع لما يجرى في الولايات المتحدة الأمريكية يراها بعيـدة عـن الدين كل الابتعاد وإن ادعت مسيحيتها، بل إنها وصلت إلى درجة الإلحـاد والفجور وكثرة البدع والهرطقات وعبادة الشيطان وتعدد الديانات الوثنيـة بشكل كبير. فمن ضمن معتقدات بعض الجماعات في أمريكا أنـه إذا أراد الشخص الشعور بالذات الإلهية فيجب أن يقيم مع الرب علاقة جنسية حميمة (ونستغفر الله من نورد هذا الانحطاط) حتى يفوز برضوان الرب في حياته. كما أن من معتقداتهم الأمريكيين المسيحيين أنهم يعبدون المسيح ويعتبرونه روح الله وابنه –والعياذ بالله–، قال تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولـدا لقـد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـدا أن دعوا للرحمن ولدا .." (مريم ٨٨).

ومن قوانين الله السارية في خلقه أن لكل شيء أجل، وأن لكل حادثـة نهاية، وأن للحضارات والأمم آجالاً مؤقتة وأن هـذه الآجـال لا يقربهـا الاستعجال كما لا يؤخرها الاستبطاء والإمهال.

ولكن من العلل الصحيحة والعلاقات التي تنذر بقرب آجال الحضارات هي ظلمات المعاصي، فمن طبيعة البشر أنهـم إذا تكبـروا تجبـروا، وإذا تجبروا ظلموا، وان العلو والاستكبار يقود إلى الظلم والعسف، والدليل على ذلك تجبر أمريكا على العالم وظلمها لكـل الـشعوب وخاصـة الـشعوب الإسلامية وليس ما يحدث في العراق وأفغانستان عنا ببعيد، ولكن لابد لكل ظالم نهاية "وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً" (الكهف ٥٩).

ومن المعروف أن الحضارة إذا ارتقت وزادت الرفاهية عنـدها فـإن الجانب المادي يطغى على الجانب الروحي فيها، وهذا ما نلاحظـه بـشكل واضح في أمريكا فقد ترافق ترفهم الكبير مع البطر بالنعمة والتكبر والتجبر والظلم، والانغماس في الملذات والشهوات والانحـلال الأخلاقـي، وتكثـر الأمراض التي تؤدي بهم إلى الهلاك وتنحل المجتمعات وتتفكـك الأسـر، وتضيع الوحدة بين الأفراد، ويكثر القتل والجرائم والاعتداءات على حقوق الغير وأعراضهم، وينتشر الانحطاط بشرب الخمور وتعاطي المخدرات وما يصاحب ذلك ون الانغماس في الزنا ولاعتداء بالاغتصاب وشيوع الـشذوذ الجنسي وارتفاع معدلات الانتحار، كما يبلغ عدد اللقطاء والأطفـال غيـر الشرعيين أرقاماً مهولة ..، "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (سورة الإسراء ١٦).

ويعتبر الغرور الفكري والمادي أحد العوامل التـي تعجـل بانـدثار الحضارة، فعندما تغتر الأمة بعلمها ومخترعاتها وما أحرزته من سبق وتقدم فإن ذلك يصرفها عن إتباع هداية السماء وعن إتباع الرسل. وأمريكا تسير

في طريق هذا الغرور وتتمثله قولاً وعملاً وباتوا يعبدون القوة والعبقرية واللهث وراء الدنيا تحت أي مبرر وباستخدام أي وسيلة.

ويبدو أن المؤشرات العلمية تدل على أن الله يهيئ أسباب الفناء للظالمين الأمريكيين، فقد ذكر علماء الفلك البريطانيون أن الأرض تواجه خطراً شديداً بسبب وجود آلاف المذنبات غير المرئية المندفعة إلى النظام الشمسي والتي يمكن أن تصطدم بالأرض في مسيرتها. فإذا ما حدث هذا الاصطدام فسوف تنقسم الأرض الأمريكية إلى مجموعة جزر ويغوص جزءاً كبيراً منها في المحيط بفعل قوة الاصطدام التي تنشأ عنها قوة انفجار تعادل ما يقارب انفجار مليوني قنبلة ذرية في حجم قنبلة "هيروشيما" وهو ما يعني أن أمريكا سوف تختفي لتحل محلها مجموعة جزر تسمى بالقاطع. ومن ناحية أخرى حذرت وكالة ناسا الأمريكية من أن استمرار ظاهرة الانحباس الحراري سيؤدي إلى غرق ولايات أمريكية بكاملها في القريب العاجل ما لم يوجد حل لهذه المشكلة.

قال تعالى " أم أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير" (تبارك ١٦-١٨).

عنوان البحث

نشأة الدولة العباسية وسقوطها

(تطبيق المنظور الإسلامي في تفسير التاريخ)

الباحثون: صادق حزام الأشول، أحمد محمد صويلح، ماجد أحمد الرميمي، محمد عبد الله القاسمي، محمود مصلح الريس.

١-النشأة:

أكد المنظور الإسلامي للتاريخ أن نشأة الدول تكون على أساس طاعة الله والعمل الصالح، وهو ما يعني أن الفكرة أو العقيدة الدينية وراء نشأة وتطور الحضارات. وقد اهتم العباسيون بالجانب الديني منذ أن كانت الدعوة العباسية سرية في الكوفة، فقد كانوا يدعون للرضا من آل البيت، وادعى العباسيون أنهم حماة الدين القويم، وأنهم جاءوا للحكم بالكتاب والسنة وجعلهما قانون يحتكم إليه جميع المسلمين من عرب وغيرهم. ومن جانب آخر تضمنت مبادئ الدعوة العباسية المساواة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات وأنه لا فرق بين عربي على أعجمي فالكل في الدين سواء، وأنهم سيصلحون ما أفسده الأمويون، وقد استطاع العباسيون السيطرة على الخلافة وكانوا يرتدون بردة للرسول ﷺ في المناسبات الدينية. وباتباعهم طريق الحكم بما انزل الله تطورت حضارتهم واهتموا بالعلم والعلماء وبالبناء والإعمار في شتى المجالات.

٢-السقوط:

في المنظور الإسلامي لتفسير التاريخ تتضافر عوامل عدة في سقوط الحضارات، الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وجميعها ترتبط بعامل الدين أولاً وأخيراً، فكلما ابتعد الحاكم عن سنن الله في الأرض كلما سارع الخطى نحو صنع عوامل التدهور.

لقد استمد العباسيون نظام الحكم من الأنظمة الفارسية وعملوا بنظرية الحكم المقدس، فقالوا أنهم يستمدون سلطتهم من الله وقد استغل الضعفاء من الخلفاء ذلك فاستبدوا بالرعية ونشأت قيادة ظالمة وقاعدة ساكنة فصار ذلك عامل مؤشر على التراجع في كل شيء.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد غلب على حياة الحكام في أواخر عهد الدولة حياة الترف والبذخ الذي تبعه إقبال على اللهو والمتعة، وتباهوا في بناء القصور، فكان الخليفة لا يكتفي ببناء قصر واحد، فالخليفة المتوكل بنى ما يزيد على خمسة قصور تحملت الخزينة المثقلة بالمتطلبات عبء البناء وما يتبعه من تجهيزات، ولم يقتصر ذلك على الخلفاء بل تبعهم الوزراء والأمراء وكبار الموظفين والمقربين، كما أسرفوا في المأكل والملبس واقتناء التحف النادرة والثمينة، كل ذلك كان والناس يعيشون فقر مدقع وحاجة مؤلمة، هذا فضلاً عن إتاحة الفرصة للبرامكة في البناء وعيش حياة الترف بكل مظاهرها, وقد أدى كل ذلك إلى ضعف موارد الدولة وتفريغ خزانتها فقاموا بزيادة الضرائب على الزراعة والصناعات الموجودة بكاملها والتجارة وعلى كل ما يمكن أن يفرض عليه ضريبة، فشاع الظلم والفساد وضعفت الدولة فسقطت لبنات أخرى في جدار حضارة الدولة العباسية.

وعلى الصعيد الاجتماعي، انتشر الفساد والانحلال الأخلاقي، فاهتم الخلفاء باللهو والترف وأقبلوا على سماع الغناء والمعازف وحضور مجالس اللهو والطرب وإغداق العطايا على المغنيات والجواري في الوقت الذي يحتاج الناس إلى الاهتمام بقضاياهم ومشاكل الأمة. فقد اشتهر المتكل بسمعته السيئة ولياليه الماجنة. وهذا انعكس على شيوع الفساد بين الناس وضعف الإيمان وانحرف الناس عن سنة الله في العبادة والإعمار، وفسدت الإدارة وانتشرت الرشوة بين كبار الموظفين وصغارهم، حتى الوزراء انحرفون ! قبلوا الرشوة مقابل الإبقاء على فاشل هنا وفاسد هناك وفاسق في مكان التأثير على السياسة وعلى القرار، هذا إلى جانب تسلق أقليات فاسدة

غير عربية وتأثيرهم على شؤون الخلافة فأشعلوا الفتن والخلافات المذهبية، وهذا الضعف ترافق مع الزحف المغولي وتهديد أراضي الخلافة.

وهذا كان يحدث والقاعدة الساكنة لا تتحرك لدفع الظلم ولا تتصدى ولا تنصح ولا تغير، ولا يتحرك بداخلها دافع الجهاد، فتحمل الحكام الفاسدون مع القاعدة الساكنة وزر أعمالهم فدخل التتار بغداد واستباحوها سنة ٦٥٦هـ. وهو ما يتفق مع ابتعادهم عن سنن الله وعقيدته الظاهرة النقية. (انظر سورة آل عمران ١٣٧-١٤١).

المصادر

- اشبنغلر، أسوالد: تدهور الحضارة الغربيـــة، ج١. ترجمـــة أحمـــد الشيباني، بيروت ١٩٦٤.
- افاناسييف. ق: أسس الفلسفة الماركسية. ترجمـــة: عبـــد الـــرزاق الصافي، بيروت، ط٤، ١٩٨٤.
- بدر، أحمد محمود: "تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفتـــرة المعاصرة"، مجلة عالم الفكر. ع ٤، مج ٢٩، ٢٠٠١.
- برغوث، عبد العزيز: "قضية السنن الإلهية في الفكـــر الإســـلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي والثقافة السُننية"، إســـلامية المعرفة، ع ٤٤، السنة ١١، ربيع ١٤٢٧/٢٠٠٦م.
- برو، توفيق: تاريخ العرب القديم. دمشق، ط٢، ١٩٩٦.
- بوريكو.ر. بودونوف: المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة: د. سليم حداد، (د.م)، ط١، ١٤٠٦-١٩٨٦م.
- توينبي، آرنولد: مختصر التاريخ، ج١، . ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، ط١، ١٩٦٠.
- تيماشيف، نيقولا: نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها. ترجمة: محمود عودة (وآخرون). القاهرة،ط٧، ١٩٨٧.
- ابن تيمية: العبودية. تحقيق وتعليق: د. محمد زينهم محمد عـــزب، القاهرة (د.ت).
- حنفي، حسن: "الفلسفة والتاريخ"، عن موقع: http://www.balagh.com/mosoa/falsafh/u512cdmq.htm
- الحفني، عبد المـــنعم: المعجـــم الفلـــسفي. القـــاهرة، ط١، ١٩٩٢.
- الخضيري، زينب:فلسفة التاريخ عند ابن خلدون.ط٢ القاهرة ١٩٨٥.

- خليل، عماد الدين: التفسير الإسلامي للتاريخ. بيروت، ط١، ١٩٧٥.
- الرفاعي، عدنان: "الفلسفة العربية الإسلامية"، مجلة التراث. ع. (٩٦)، ٢٠٠٤.
- الزيادي، محمد فتح الله: الاستشراق أهدافه ووسائله، دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، دمشق، ط/١ ١٤٢٦هـ/١٩٨٨.
- زيدان، عبد الكريم:السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- شاخت، ريتشارد: رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود. القاهرة ١٩٩٧م.
- أبو شوك، إبراهيم: "علم التاريخ إشكالات المنهجية ومشروعات الأسلمة"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة السادسة، العدد الربع والعشرون، ربيع ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- صبحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ. الإسكندرية (١٩٧٥).
- الصعيدي، عبد الحكم عبد اللطيف: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية. القاهرة، ط١، ١٩٩٦.
- عطا، عبد الخبير: من حوار له أجرته معه د. نيلى بيومي، منشور على موقع "مفكرة الإسلام".
http://www.islammemo.cc/article1.aspx?id=5159
- عمارة، محمد: دراسات في الوعي بالتاريخ، بيروت، ط/١ ١٩٨١.
- قطب، سيد: في التاريخ فكرة ومنهاج. القاهرة، ط١١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

- قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج٦،. القاهرة، ط٢٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- قطب، محمد: حول التفسير الإسلامي للتاريخ. جدة، ط٣، (د.ت).
- كتاب تعريفي عن سعيد النورسي (١٨٧٦م-١٩٠٩م) بعنوان: لمحات من حياة وآثار بديع الزمان سعيد النورسي. القاهرة (د.ت).
- الكحلاني، حسن محمد: فلسفة التقدم دراسة في اتجاهات والقوى الفاعلة في التاريخ. القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- محل، سالم أحمد: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب. كتاب الأمة، العدد ١٦، قطر ١٤١٨هـ.
- المشهور، أبو بكر العدني بن علي: إحياء لغة الإسلام العالمية وتجديدها من خلال تأصيل البدائل وتحديث الوسائل. حضرموت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- مقدمة العلامة ابن خلدون. روجعت وقوبلت من قبل لجنة من العلماء. منشورات، دار الفكر (د.ت).
- بن نبي، مالك: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية. ترجمة: عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- بن نبي، مالك: شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دمشق، ط٦، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- هيشور، محمد: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها. القاهرة، ط١، ١٩٩٦.

فهرس المحتويات